
د. أحمد خالد توفيق
روايات مصرية للجيب
41
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com
سيّد الچينات

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) ، وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) ؛ على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (سَفَرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ، ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى ، وأهالٍ متشككين ، وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية .. لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا .. فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه ؛ فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة ، والقبائل المعادية ، والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل ، وسارقو الأعضاء ..

هناك ـ كما قلنا ـ من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة !.. لا أعرف ما إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعدُ إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ .. وسنفهم كل شىء ..

* * *

1ـ أسبوع واحد ..

سيكون علىّ أن أفسر كل شىء ..

فى الواقع لا أجد موقف (كاربيرا) مبررًا بما يكفى ، وبالتأكيد أنا لا ألتمس له الأعذار .. لكن الحياة ليست بهذا الوضوح ، دعك من أن ظروف البلد ذاته واستعداده الكامل للفساد كانا من العوامل التى جعلت مغامرته ممكنة . كذلك لا أزعم أننى أفهم (لوتشيا) تمامًا .. لكى أستطيع شرح هذا كله فلابد أن أكون شكسبير ..

هناك (ماوازاكى) .. مثلاً يصعب علىّ أن أفهم دوافعه كذلك .. لو كان شخصية فى قصة لاتهمنا المؤلف بالفشل ، لكن الواقع لا يتصرف بطريقة القصص ، وهناك ألغاز كثيرة بحق .. هناك شاعر شهير هام حبًا بمطربة رقيقة ، ثم كرهها كالجحيم عندما رآها فى شم النسيم تأكل الفسيخ ! هل هذا دافع كاف مبرر ؟.. فى عالم الأدب : لا .. لكن فى الواقع نقبل كل شىء لأنه واقع ..

لى صديق رسام يهوى أن يلتقط صورًا رقمية للناس ويفحصها بعناية .. كان يرينى وضعًا غريبًا لفتاة جالسة ، أو رجل وقف وقد ثنى ركبته ، فيقول لى : « فقط الحياة تجرؤ على أن تضع

الأجسام فى أوضاع غريبة كهذه ، بينما لو رسمها رسام لاتهموه بقلة الموهبة وعدم فهم التشريح .. »

ما أردت قوله هو أن هناك الكثير من الثغرات فى فهمى لـ (كاربيرا) ؛ لهذا سأحكى لك القصة من البداية وأطلب رأيك باعتبارك عبقريًا .. لماذا أعتبرك عبقريًا ؟.. لأنك تجلس هنا تسمع ما أقول !

سيكون علىّ أن أبدأ من البداية وأترك الحكم لك ..

* * *

لقد انتهت مغامرتى مع إنفلونزا الطيور التى قررت أن تعود من مزرعة دجاج فى أنجاواندييرى . أنا (علاء) المشاغب الذى تحيط به المشاكل أينما ذهب ، وإن كنت لم أكف عن اعتبار نفسى شابًا رقيقًا مسالمًا يبغى أن يترك فى سلام ..

أنا (علاء) الرومانسى الذى تعاوده عند النوم أحلام لها مذاق الحنين ، عن فتاة أفريقية من الزولو ، ترفع يدها وهى تغنى بصوت رخيم ، بينما يضرب عشرات الزولو رماحهم بدروعهم ، ويصرخون مرة واحدة :

-.. شاكا زولو! »

تقول لى (أونوابا) وهى تتلوى مع الإيقاع :

ـ « كل هذا من أجلك وحدك يا (علاء) .. من أجلك .. صالاداشى دكتور .. صالاداشى ! »

وأنهض من النوم غارقًا فى العرق وقلبى يتواثب ، لكنى أجد (برنادت) راقدة بجوارى وقد انتثر شعرها الأشقر على الوسادة .. عيناها مفتوحتان ..

أنا (علاء) الجبان الذى يخشى أن يكون قد تكلم أكثر من اللازم وهو نائم .. لو لم أكن تكلمت فلماذا تنظر إلىَّ فى ثبات فى الظلام ورأسها على الوسادة ؟!.. لماذا أسألها عن سبب استيقاظها فلا تقول شيئًا ؟!.. لو تكلمت فلابد أن هذا كان بالعربية والفرنسية ، وهى لا تجيدهما .. احتمال نجاتى قوى جدًا ..

أنا (علاء) الحويط الذى لم ينخدع بتجربة الاقتراب من الموت تلك .. مر بها لكنها لم تترك براثنها فى شخصيته ولا قناعاته ، وفضحتُ ذلك الذى حاول أن يقنع الناس بها ..

أنا (علاء) المحظوظ الذى استرد صحته بعد ما كانت الملاريا تفتك به .. أصيب بها برغم أنه يقى نفسه منها .. هذا سوء حظ .. لكن نجاته حسن حظ لا شك فيه ..

أنا (علاء) المغفل الذى لم يفطن إلى أن (مادلين كوفييه) ـ حفيدة العالم الفرنسى (كوفييه) ـ فى خطر حقيقى على حياتها لو أنها ظهرت فى جنوب أفريقيا أو تعاملت مع طبيب من (الخوى خوى) ..

أنا (علاء) الذى يخنقه الحنين إلى الوطن .. كيف يكون حالى لو كنت فى قارة أخرى ؟!.. على الأقل تراب أفريقيا هو ذات تراب مصر ..

أنا (علاء) القلق الذى يقرأ عن مصر فى صحف متناثرة فيزداد قلقًا وتلتهم الظنون قلبه .. لا شىء يضخم الهواجس مثل أن تكون بعيدًا .. عندها تتحول الهزة الأرضية إلى زلزال ، والمشاجرة إلى مظاهرة ، واختفاء سلعة إلى مجاعة ، والوعكة إلى وباء ..

فى كل مرة أحسب أننى لن أجد مصر كما هى على الإطلاق عندما تركتها .. يا لك من بلد عجوز عزيز هش مرهق !.. مصر

هي أمي بالمعنى الحرفي للكلمة .. كلاهما عزيز عجوز هش مرهق ، وكلاهما في خطر دائم ، وكلاهما تركته وقلبي يتمزق عليه .. ليس هذا أفضل وقت لتترك أمك الصغرى ولا الكبرى ..

أنا (علاء) الخبير .. لقد سقطت بي الطائرة في صحراء (كالاهاري) وظللت حيًا ، وتعاملت مع البوشمن وظفرت بثقتهم ..

أنا (علاء) الأبله ..

هل لديك تفسير آخر لكونهم لا يجدون سواي كي يرسلوه لأي مكان ؟..

هناك كثيرون غيري ، لكنهم وجدوا أنني سهل وفي متناول اليد ..

هكذا لم تمر عليّ سوى بضعة أيام بعد انتهاء قصتي مع الطيور ، وكنت في ذلك الوقت قد بدأت أرتب كل شيء للعودة إلى مصر ، حتى استدعاني المدير ..

كنت أتأهب للعودة إلى مصر وقضاء إجازة قصيرة ، بعدها أتحرك إلى كندا مع برنادت حيث تعيش إجازتها بدورها .. ومعنى هذا أنه سيكون عليّ أن أقابل أهلها للمرة الأولى .. هذا يفعمني قلقًا ..

لا أعنى أن رأيهم يهمنى كثيرًا .. لقد ظفرت بابنتهم وانتهى الأمر .. هى بالغة ناضجة وقد اختارت ، ولن يغير أحد وجهة نظرها .. لكنى برغم هذا آمل أن تكون الأمور سهلة بسيطة ، وألا أسبب لها أى نوع من الصراع ..

أبوها الثرى المغرور العملى جدًا لن ينسجم معى .. أعرف هذا يقينًا .. ولسوف نشتبك معًا .. طبيعتى المشتعلة تشبه الصوديوم لو لامس الهواء .. لا تضعوا الصوديوم فى الهواء يا سادة ، ولا تتركونى كثيرًا مع أبى برنادت ..

سوف تتم الأمور - كما أتخيلها - هكذا : سوف يقول تعبيرًا سخيفًا عن العرب أو المسلمين ، ولسوف أبتلعه أول مرة وثانى مرة من أجلها ، ثم أنفجر .. ولسوف تلومنى هى فيما بعد فى غرفتنا ، وتقول لى :

- « كان بوسعك أن تمسك لسانك .. الكلمات لا تلتصق ! »

فأرد أنا فى حدة :

- « هل سمعت ما قال ؟! »

وهكذا .. أرى هذا وأسمعه جيدًا .. إن مستقبلاً رائع الجمال ينتظرنى كما ترى ، لكنى آمل أن تمنحنى زيارة مصر السعة النفسية اللازمة لتحمل ذلك الخنزير .. لماذا هو خنزير ؟!.. لأنه سيكون كذلك !.. كل توقعاتى تصدق فى النهاية ..

كنت غارقًا فى هذه الاستعدادات عندما استدعانى (بارتلبيه) ..

نظرت إلى ساعتى فوجدتها السابعة مساء .. جميل .. لقد عادت الحياة لطبيعتها إذن .. على الأقل لن أقابل (بالينجا بايلا) المدير الأسود ، ولا نائبته الهولندية الشمطاء (هانا فان بيردن) .. هنا رجل ظريف حنون (ملظلظ) يتظاهر بالحزم ، اسمه (بارتلبيه) ..

حييت السكرتيرة ، ودخلت المكتب البسيط ، حيث كان (بارتلبيه) جالسًا على مكتبه المتواضع يراجع بعض الأوراق ، وجواره نخاس العبيد الكريه (باركر) .. هذه مهمة مناسبة لى جدًا ما دام الرجلان هنا ..

قال لى (بارتلبيه) وهو يقضم بعض الكرواسان :

ـ « كيف حالك يا علاء ، وكيف حال الزوجة ؟ »

ـ « بخير يا سيدى .. نتأهب للرحيل قريبًا .. »

قال (باركر) وهو لا يبعد عينيه الحادتين عن وجهى :

ـ « هذا جيد .. لابد أنك سعيد بالعودة لبلدك الجميل .. »

مجاملات (باركر) أكثر من سبابه ، وتنذر بأن هناك مقلبًا ما .. لذا كنت فى حذر :

ـ « سعيد جدًا .. فأنا مرهق بالفعل .. »

ـ « كنتَ فى رحلة فى جنوب أفريقيا .. هذه رحلة يدفع البعض ثروة للقيام بها .. »

ـ « لم أر الكثير .. فقط كنت أموت عدة مرات .. لم أذهب للسياحة يا سيدى ، لو كنتَ لاحظت هذا .. »

قال (بارتلبيه) بلهجة عملية :

ـ « سوف تفهم هذا كله فيما بعد ، لكن أريد أن أعرف رأيك فى رحلة لمدة أسبوع إلى (غينيا الاستوائية) .. أسبوع واحد .. »

نظرت إليه فى عدم فهم ، فقال :

ـ « أسبوع تعود بعده وتسافر لمصر مع زوجتك .. لا توجد مشكلات خطيرة .. »

(غينيا الاستوائية) تقع على مرمى حجر من الكاميرون .. كأنهم نسوا ثقبًا بين الكاميرون والجابون وبحثوا عن قطعة ملاط تسد هذا الثقب ، فلم يجدوا إلا (غينيا الاستوائية) .. ومن أغرب الحقائق أن خط الاستواء لا يمر بها بأى شكل !

سألتهما عن المهمة التى أنا مُوكّل فيها ، فقال (بارتلييه) :

ـ « إن المركز الرئيسى فى النمسا قلق ، وقد أرسلوا الكثير من التساؤلات إلى (سافارى ـ 1) فى كينيا .. بالطبع كنا نحن أول من خطر ببالهم .. فغينيا الاستوائية هى بشكل أو آخر جزء من الكاميرون .. »

ـ « قلقون من أى شىء ؟ »

قال (باركر) ، وقد تضايق لأنه صمت أكثر من خمسين ثانية :

ـ « هناك من يدعى بروفسور (كاربيرا) .. إنه أسبانى يدير مستشفى صغيرًا فى جزيرة قرب الساحل .. ربما تعرف أو لا تعرف أن البلاد هى ـ تقريبًا ـ مستعمرة أسبانية منذ القدم. هو مستشفى خاص لكن علامات استفهام عديدة تحيط بتمويله .. يؤدى بعض الخدمات المتواضعة ، لكن تجهيزه يوحى بأن هناك جهة غاية فى الثراء تنفق عليه .. طبيعة البلاد تتيح لكل من هب ودب أن يعمل فيها ما يريد ؛ لهذا تشككوا فى طبيعة التجارب التى تجرى هناك .. »

قلت باسمًا :

ـ « يبدو أنك تتحدث عن (جزيرة الدكتور مورو) .. هل متأكد من أنه لا يُحَوِّل الوحوش إلى بشر بجراحات غامضة ... هل أنت متأكد من أنه لا توجد امرأة ـ فهد على تلك الجزيرة ؟ »

لم يضحك (باركر) ، وقال :

ـ « لن أستبعد هذا .. وفى النمسا لا يستبعدون هذا .. فقط نحن بحاجة إلى جاسوس من الداخل .. »

ـ « وهو أمر مستحيل .. »

قال (بارتلييه) وهو يخرج ملفًا :

ـ « ليس إلى هذا الحد .. (ميشيل مرعى) .. هل تعرفه ؟ »

وفتح الملف .. نظرت إلى الصورة الموضوعة فى المقدمة ، فوجدت صورتى الفاتنة وقد بدا علىّ الهم .. لكن باقى البيانات كان كلامًا فارغًا .. أنا فرنسى فى الأربعين ، من أصل عربى ، مختص فى الهندسة الوراثية .. ما هذا الكلام ؟!

قال (بارتلييه) باسمًا :

ـ « كان المستشفى يبحث فى معهد باستير عن خبير هندسة وراثية يعمل معهم .. استطعت بعلاقاتى أن أحصل على الطلب ، وقمت بتلفيق هذا الملف .. هناك نسخة منه على مكتب (كاربيرا) الآن .. واضح أننى اخترتك أنت لأن أصلك العربى يتفق مع الكلام .. »

ـ « وكيف أرسلت الملف قبل طلب موافقتى ؟! »

قال (باركر) بضحكة رقيقة لطيفة كشفت عن أسنانه :

ـ « هذا هو الجميل فى الموضوع .. الأمر ليس اختياريًا ، بل هو تكليف .. يمكنك الرفض بكامل حريتك ، ويمكنك العودة لبلدك ، لكنك لن تعود طبعًا .. هذا مفهوم .. »

قال (بارتلبيه) وهو يغلق الملف :

ـ « ليس الأمر بهذه الصعوبة .. سوف تذهب .. تمضى أسبوعًا هناك مفتوح العينين والأذنين .. تعود .. تحكى لنا كل شىء ، كأنك (ماركو بولو) العائد من بلاد الفرس .. لا نطلب منك سرقة ميكروفيلم ولا اقتحام خزائن ومطاردات عبر الممرات بسلاح آلى .. هذا ليس فيلمًا سينمائيًا ، لو لاحظت هذا .. »

محتجًا قلت ، شاعرًا بالعجز :

ـ « لكن من قال أننى أفهم أى حرف فى الهندسة الوراثية ؟!.. سوف يفتضح أمرى بعد ثلاث دقائق .. سيعرفون أنكم أرسلتم حمارًا .. »

قال (بارتلبيه) فى جدية :

ـ « جميل .. جميل .. لن تكون أول حمار يتأخر افتضاح أمره أسبوعًا .. أنت تعرف ما يفعله الحمار الحقيقى .. اليوم أنا

مرهق فدعونى استرح .. أريد رؤية إمكانياتكم .. أنا بحاجة إلـى مختبر واسع مكيف .. هل لديكم محلـول (هاتك) ؟.. لا ؟.. أنـا لا أستطيع عمل أى شىء من دون محلول (هاتك) .. سوف أنتظر فى غرفتى حتى تجلبوا لى محلول (هاتك) .. ثم .. أنتم غير جادين .. لقد أمضيت هنا أسبوعًا بلا أى تقدم .. سوف أرحل .. ولتعلموا أن الذنب ذنبكم .. هكذا .. »

كتمت ضحكتى .. الرجل يعرف هذه الأساليب إذن .. ليس بالرجل السهل أبدًا ..

ـ « وماذا لو استدعانى (كاريرا) هذا لمناقشة علمية مثمرة ؟ »

ـ « يمكنك دومًا خداعه . لكنى سأعطيك بعض الكتب ومحـاضرة قصيرة توحى بأنك غارق حتى أذنيك فى الهندسة الوراثية .. »

هكذا صار ظهرى للحائط ، ولم يعد أمامى سوى القبول ..

أسبوع ..

لن يؤذى أحدًا ..

* * *

2ـ مستشفى الدكتور كاريبيرا ..

لهذا يمكنكم أن ترونى مرهقًا فى مطار (مالابو Malabo) .. (مالابو) هى عاصمة (غينيا الاستوائية) التى تقع على حافة بركان قديم خامد فى جزيرة (بيوكو) .. لقد جئت هنا بطائرة تخص الخطوط الجوية الأسبانية ..

خرجت من المطار لأجد المنظر الذى أنذرونى منه ..

أنا ـ بلا فخر ـ فى واحدة من أكثر دول أفريقيا ثراء بالنفط ، لكنها كذلك أكثرها فسادًا .. لهذا يصب كل هذا النفط فى جيب رئيس جمهوريتهم ، بينما لا تصل منه قطرة إلى الشوارع القذرة التى تسبح وسط المجارى .. لا يمكنك أن تتكلم ؛ لأن (غينيا الاستوائية) من أشد خمس دول فى العالم قمعًا لحرية الصحافة .. هى كذلك من أعلى عشر دول فى معدلات الفساد ..

•

هناك شوارع معدودة تستحق هذا الاسم ، وهناك مبان معدودة كذلك .. الكاتدرائية .. المحكمة .. لابد من أن تكون المحكمة أنيقة ، فى بلد قمعى كهذا ..

فى كل مكان ترى صور الرئيس (تيودورو أوبيانج مباسوجو) الذى تولى الحكم بعد ما تخلص من عمه عام 1979 وأعدمه .. البعض يقول أن هذا خلط فى الأسماء وأن الرجل ليس عمه على الإطلاق .

على كل حال لم يكن العم ملاكًا .. لقد أعدم 150 من معارضيه فى مرة واحدة فى الاستاد ، بينما السماعات تردد أغنية (ميرى هوبكنز) الرقيقة : « كانت تلك هى الأيام يا صاحبى ..! » هذا أول إعدام شاعرى سمعت عنه فى حياتى ..

فى كل مكان ترى الأطفال العراة وعلامات الفقر على الوجوه .. يمكن أن أعد عددًا لا بأس به من الأمراض هنا بمجرد النظر ..

كلما سمعت أخبارًا كهذه رحت أتساءل : « هل كان الاستعمار أقسى على الأقطار الأفريقية من هؤلاء فعلاً ؟! » .. هؤلاء الطغاة يجعلونك تعيد النظر فى مسلماتك .. أنا أؤمن بأن أفريقيا للأفريقى ، كما كان ذلك النشيد الجميل يقول ، لكن أفريقيا كذلك ليست لطاغية وغد مثل (بوكاسا) و(أوبيانج) .. هؤلاء أقسى

على شعوبهم من أى استعمار .. ولهذا ؛ منذ استقلت معظم أقطار أفريقيا والحروب الأهلية فى كل مكان ، وقد اضطر أفراد أحد الوفود الأفريقية فى مؤتمر بالأمم المتحدة إلى تغيير العلم ثلاث مرات أثناء مؤتمر استغرق أسبوعين ! وتساءل أحدهم وهو يركب الطائرة عائدًا : « لا أعرف ما إن كنت أعود لبلادى فآخذ وسامًا أم يتم إعدامى فى المطار ! »

لقد تم اكتشاف البترول .. الكثير منه فى منتصف التسعينات ، وهذا قلب أوضاع البلاد وجعل صراع السلطة داميًا ، لكن عامة الناس لم يشعروا بأى فارق يذكر ..

من حسن حظى أن المطار موجود على ذات الجزيرة التى يوجد فيها مستشفى د. (كاربيرا) .. هذا يعنى أننى لن أركب أى قارب .. فقط أنتقل إلى الجزء الجنوبى من الجزيرة ، وهو مقاطعة أخرى تدعى (لوبا) ..

من مكانى أرى البحر المتلاطم .. هذا بالضبط هو الساحل الغربى لأفريقيا عند مفصل فك الجمجمة الأفريقية العملاقة .

تذكر أنني قضيت فترة أسفل النقن في جنوب أفريقيا .. الآن أجرب مفصل الفك لمدة أسبوع ..

مرحبًا بك يا (علاء) .. أيها الطبيب المصري الوسيم .. في (غينيا الاستوائية) .. أقصد بلد في أفريقيا كلها !

* * *

كان المستشفى أنيقًا بالفعل ، ومن الواضح أنهم أنفقوا عليه بسخاء .. إنه يمتد على شاطئ البحر لمساحة لا بأس بها ، وقد احتجت إلي وقت لا بأس به كي أفهم أنه يتكون من بنايتين متقاطعتين على شكل حرف X مع لمسة حداثة واضحة ، فلابد أن المقصود من هذا التكوين جعله يشبه الكروموسوم ..

هناك مستشفى عملاق لجراحات المخ في ألمانيا ، تم تصميمه على شكل مخ عملاق ، ويبدو أن الأمر يتكرر هنا ..

السيارة التي أقلتني من المطار تدخل معي ، ومن الواضح أنهم يعرفون السائق ..

هنـاك عدة نقـاط أمن تحيط بالمكـان ، ونظـم الأمـن تذكـرك بمعسكر للجيش . إلا أنك لو تجاوزت هذه النقاط المثيرة للتوتر ، سوف تجد حديقة غناء تمتد إلى مرمى البصر ، تتوسطها نافورة أنيقة من الطراز الذى يقذف تيار ماء فى جهة ، ثم يقـذف تيـارًا فى جهة أخرى ، وهكذا .. شبكة معقدة من تيارات الماء .. هناك مقاعد يجلـس عليهـا مرضـى أفارقـة .. يتكلمـون الأسبانية فعلاً وليست لغتهم الوطنية ..

عشب تمت العناية به ، تمشى فوقه قاطعة عشب تشبه الدبابة الصغيرة ..

الممرضات حسنات المظهر يركضن هنا وهناك .. لاحظت أن لهن طابعًا شبه أمريكى جنوبى ، ثم عرفت فيما بعـد أنهـن كوبيـات .. علاقة كوبا بهذا البلد قوية جدًا ..

يمكنك من أيـة نـافذة فـى الطـابق الثـانى أن تـرى البحـر يمتـد أمامك .. نحن فى جزيرة مهمة وكبيرة ..

أخرجت الكاميرا والتقطت بضع صور .. لا غرابة في أن ألتقط صورًا لهذا المكان الجميل ، فلن أثير الريبة من حولي ..

اقتادتني ممرضة إلى ممر طويل أنيق .. الصمت والهدوء عنوانا كل شيء .. لا مرضى على الإطلاق .. لا توجد علامة تنم عن نشاط آدمي ..

في نهاية الردهة يوجد مكتب صغير ، فيه سكرتيرة أسبانية أخرى .. ثم مكتب كبير ، دقت بابه وفتحته وهي تضحك لي ضحكة مشرقة .. هنا شممت رائحة عطرة ، ورأيت للمرة الأولى الدكتور (بابلو كاربيرا) ..

رأيت علماء كثيرين في حياتي ..

رأيت علماء يبدون كأبطال القصص المصورة ، بالرأس الصلعاء واللحية والشرود ..

رأيت علماء صغار الحجم مذعورين ..

رأيت علماء مهيبين شديدي الوسامة ، يبدون كممثلي السينما ..

لكنى لم أر قط عالمًا يذكرك بشكل الوغد فى الأفلام .. ذبابة البارات .. الشارب الرفيع المنمق ، والنظرة الناعسة اللزجة ، والأنامل الطويلة ، والشعر اللامع المصفف بعناية ، مع لون شاحب يوحى بأنه لا يرى الشمس أبدًا .. وجه تغرير بالنساء وإفراط فى الخمور ونذالة وكسل و ... من الغريب أنه فطن لطابعه فصمم على أن يدخن سجائر طويلة سوداء يضعها فى مبسم ..

لا أريد أن أنتقد الإخوة الأسبان ، لكن يجب أن أقول إن له طابعًا أسبانيًا واضحًا كذلك !

كانت أول كلمة قالها هى :

ـ « حقائبك .. »

ثم تدارك فقال :

ـ « حقائبك يا د. (مرعى) .. هناك من سيُعْنى بها .. »

كان صوته رخوًا لزجًا كشكله. لا أتمنى أن أكون فتاة غريرة مع هذا الرجل أبدًا .. أحيانًا يكون من المفيد والمطمئن أن تكون رجلاً. لكن هناك شيئًا غريبًا فيما قاله فطنت له بعد قليل ..

كان يتكلم العربية ..!

هل هو فخ ؟.. ثم تذكرت أنني فرنسي من أصل عربي .. لا توجد مشكلة في أن أفهم ما قال .. لذا قلت في دهشة مفتعلة :

ـ « عذرًا ! Pardon ! »

ـ « لا تنس أن كل أسباني يحمل جزءًا من الثقافة العربية في تكوينه .. أنا أمت بقرابة للـ (مور Moor) .. هل تعرف من هم ؟ »

ـ « العرب الذين ظلوا في الأندلس بعد انتصار الأسبان .. »

ـ « أنا أمت لهم بقرابة بعيدة ، لكن دعنا لا نضيع الوقت في هذا الكلام .. إننا لا نَلقَى خبرات علمية كثيرة في هذه البقعة النائية .. ودعني أصارحك أن (معهد باستير) اسم له هيبة ، ولقد شعرت بتوتر قبل لقائك .. »

هذا الرجل اللزج لا يمكن أن يتوتر لأي سبب .. أشعر بأنه ثعبان يتربص في الظل منتظرًا اللحظة المناسبة .. سبحان الله !.. لم يحدث في حياتي أن كونت انطباعًا سلبيًا عن إنسان بهذه السرعة وهذه الدرجة من قبل ..

قلت له ، وأنا أجلس متحاشيًا نظراته :

ـ « تذكر أنكم لم تطلبوا خبير هندسة وراثية ، لكن طلبتم مختصًا في الموضوع .. الفارق كبير .. لست الأفضل لكني أناسب ما تريدون .. »

ـ « فهمت أنك ستمضي معنا أسبوعًا لتتعرف على أسلوب العمل ، ثم تعود إلى فرنسا لتسوية أمورك وترجع لنا إن كانت نيتك البقاء .. »

ـ « هذا صحيح .. »

كان ملفي مفتوحًا أمامه يقلب صفحاته بأنامله الطويلة ، وهو ذات الملف الذي سهرت مع (بارتلييه) نراجعه ..

قال لي وهو يقلب الصفحات :

ـ « بالعكس .. إن أبحاثك مثيرة جدًا ، وقد قرأتها جميعًا .. »

ثم قرأ بصوت عال :

« The Genetic Engineering of Hematopoietic Stem Cells: the Rise of Lentiviral Vectors, the Conundrum of the LTR, and the Promise of Lineage – restricted Vectors »

ثم قال متمعناً :

ـ « موضوع غاية فى الأهمية .. معك فى هذا البحث د. (أليكس تشانج) .. هل تعرفه ؟.. أنا قابلته فى نيويورك .. »

يا للكارثة !

كنا متفائلين عندما حسبنا أننا قادرون على الخداع مدة أسبوع . واضح أننى سأنكشف بعد ثلاث دقائق ..

لكنى على كل حال كنت قد أعددت بعض الردود التمهيدية ؛ لذا ضحكت فى تواضع وقلت :

ـ « لم ألقه ولا أعرفه .. أنا مجرد مشارك فى هذه الورقة مع أسماء عملاقة .. لم أحظ إلا بشرف مراسلته ، لكن عمالقة معهد باستير هم الذين قاموا بأكثر العمل .. أنا ترس صغير يا سيدى ..

ولكن كنت قد رأيت أبعد من غيرى فلأننى صعدت فوق أكتاف العمالقة .. »

قال من دون أن يضحك :

ـ « نيوتن .. »

ـ « ماذا عنه ؟ »

ـ « هو الذى قال هذا .. »

ـ « وأنا أؤيده بعنف .. »

راح يقلب الأوراق بحثًا عن مقلب آخر .. ثم قرر ـ فيما يبدو ـ أن الكثير من المرح ينتظره ، فلا داعى لتبديد هذه اللـذة بسرعة ، ودق جرسًا جواره وقال :

ـ « سوف نتكلم عن أبحاثك بصورة تفصيلية أكثر غدًا ، لكنى راغب الآن فى أن تقابل فريق العمل هنا .. »

* * *

3ـ المختبـــر..

المرأة التى دخلت كـانت نموذجًا للممرضـة كمـا حلم بهـا مـن ابتكروا مهنة التمريض ..

فى الأربعين هى .. ثياب بيضاء أنيقة ، وحذاء مطاطى أبيـض تشعر بأنه لو لمس سروالك لاتسخ الحذاء .. على الوجـه نظـرة حازمة مهذبة ، وثمة خصلة واحدة ـ شائبة أرستقراطية ـ تتدلى على الجبين .. عينان تشعان ذكاء وتهذيبًا ، لكنك كذلك لا تتمنـى أبدًا أن تصير عدوًا لها .. وذكرتنى براهبات المدارس التبشـيرية فى مصر .. كيف تتعامل هذه السيدة المحترمـة مـع هذا الثعبـان الآدمى اللزج ؟!.. لابد أنها تمقته ..

طبعًا من الواضح أنها ليست إفريقيـة .. لكنهـا كذلـك لا تحمـل طابع أمريكا الجنوبية مثل باقى الممرضات هنا ..

ـ « الأخت (مارى هوارد) ، بريطانية ، وهى رئيسة التمريض هنا .. رقيقة كالملاك مع المرضى ، حازمة كالجنرالات مع فريـق التمريض وأحيانًا الأطباء .. »

ابتسمت لى بحزم ، فقلت :

ـ « واضح .. يبدو أننى اخترت الجانب الخطأ .. كان يجب أن أكون مريضًا .. »

هزت رأسها وقالت بالفرنسية :

ـ « المرضى هنا فقراء جدًا ، وبالسون .. معظمهم من قبيلة الفانج .. »

كنت أعرف الفانج من الكاميرون .. إنهم موجودون على الحدود فى البلدين .. إن امتداد بلدان أفريقيا الطبيعى لا يخضع للخرائط كما تعلم .. لكنهم هنا يمثلون 85٪ من السكان ، وهم يتكلمون لغة خاصة يسمونها (البولو) فى الكاميرون .. إن عددهم يتزايد .. وقد بدءوا يقضون على سكان البلاد الأصليين من البانتو .. معظمهم يعيش على هذه الجزيرة ، بينما هناك قبائل أخرى ضعيفة على الساحل ، يطلق عليهم عامة اسم (بيليروس) ، وهى لفظة تعنى (قوم الساحل) بالأسبانية ..

قالت مواصلة :

ـ « لا أريد الكلام فى السياسة .. لكن هذا البلد يُحكم بطريقة سيئة .. النتيجة هى أن كل هذا الثراء لا يصل منه مليم إلى هؤلاء .. كل البترول ملك الرئيس (أوبيانج) .. »

تنحنح (كاربيرا) بمعنى أنه لا يرغب فى مزيد من الكلام ، وهذا شىء له ما يبرره .. فى هذه البلدان القمعية يمكن للممرضة أن تتكلم ، لكن المدير هو من سيعاقب ، إذ كيف يسمح لها بهذا الكلام ؟!

على كل حال ، من أين يتلقى تمويله إن لم يكن من الحكومة ؟.. كل هذا البذخ حكومى على الأرجح ، وهو يجازف بأن يقطع مصدر رزقه لو حدث سوء تفاهم ..

لكن ما الذى تجنيه الحكومة من هذا المستشفى ؟

يمكننى فهم سبب الفضول القاتل لدى رجال سافارى فى النمسا ..

قال لنا (كاربيرا) وهو ينهض :

ـ « أعتقد أنه يمكن أن نرافق ضيفنا العظيم فى المستشفى .. »

كان يلبس بذلة أنيقة ، فنزع السترة كاشفًا عن قميص غالى الثمن ورباط عنق ثمين ، وتناول معطفًا أبيض من فوق مشجب ، ووضعه على كتفيه .. إنه عارض أزياء أكثر منه طبيبًا جادًا ..

غادرنا الغرفة إلى الممر الطويل الخالى من المارة بالخارج ، وقال لى وهو يمشى وسطنا :

ـ « سوف تلاحظ أن معظم المحادثات هنا تتم بالأسبانية ، وأن القليلين جدًا يستعملون اللغات المحلية .. هناك لغة ثالثة مهمة جدًا واستعمالها يتم بأوامر حكومية ؛ هى اللغة البرتغالية .. الرئيس هو الذى أدخل هذه اللغة لتصير بلاده ضمن رابطة الدول المتحدثة بالبرتغالية .. وهذا يعطيه مزايا مادية لا شك فيها .. »

قلت فى حيرة :

ـ « هذا يعقد الأمور جدًا .. فرنسية وأسبانية وبرتغالية .. »

ـ « مشكلة فعلاً .. لهـذا خصصت لـك مترجمًـا من الأسبانية إلى الفرنسية .. سوف يصحبك أثناء العمل .. التفاهم بينى وبينك سيكون بالعربية أو الفرنسية لو أردت .. »

ـ « أفضل الفرنسية .. »

ولم يكن هـذا عن تعـالٍ أو (ألاطة) لا سمح الله ، ولكن لأن عربية الرجل كانت نوعًا من التعذيب .. أسوأ لغة عربية سمعتها فى حياتى .. يبدو أن اللغة العربية صعبة فعـلاً ؛ لأن مـن يتكلمونـها ببراعة قلائل ..

هنا تصلبت رئيسة التمريض ، والتفتـت إلـى الـوراء فـى خفـة ويقظة ، كأنها نمر متربص ..

لم أفهم ما تنظر إليه ، حتى رأيت تلك الممرضة الرشيقة تمشـى فى نهاية الممر مرتدية حذاء ذا كعبين عاليين ، وكانت تحاول أن تحدث أقل ضجة ممكنـة ، لكن صـوت (كليك كـلاك) كـان عاليًـا بحق ..

قالت الأخت (مارى) مفكرة :

- « حذاء ممنوع .. هم م م !.. أرجو أن تسمحا لى .. لابد من فهم هذا .. »

بالطبع هو خطأ قاتل فى أى مكان .. يجب على الممرضة أن تتنقل بلا ضوضاء ، كالفراشة ..

هكذا تركتنا فى حزم ، ماشية تلك المِشية النشيطة المصممة ، كأنها جنرال فى الجيش الكمبودى .. وعرفت أن تلك الممرضة سوف تلاقى لحظات عصيبة ..

واصلت المشى مع د. (كاريرا) الذى لم يعلق على ما حدث ، وأخيرًا توقف أمام باب مغلق كتب عليه (المختبر) ..

قال لى وهو يدفع الباب :

- « د. (لامبيير) رجل عبقرى .. سوف تحبه على الفور .. »

فى الداخل كان هناك مختبر مجهز على أعلى طراز .. هناك أكثر من جهاز معقد لم أميز من بينها إلا جهاز (إليزا Elisa) .. وما عدا ذلك ، كانت الأجهزة متقدمة جدًا .. هناك أكثر من ثلاجة رأسية وأكثر من مجهر حديث .. عدة شاشات كمبيوتر مضاءة تتراقص عليها الأرقام وذلك المسار الحلزونى المميز لخطوات اختبار (إليزا) ، لكن الأمر يتجاوز هذا طبعًا ..

عسى ألا تكون هنا أسئلة محرجة ، أو أكتشف أن الجهاز الذى أمامى هو الجهاز الذى تخصصت فيه طوال حياتى ، كما تقول الأبحاث ..!

كان د. (لامبيرت) رجلاً فرنسيًا ذا لحية أنيقة فعلاً .. له عينان حادتان صارمتان من الطراز الثاقب ، وأعتقد أنه حاد الطباع كذلك .. رآنى فقال له (كاربيرا) :

ـ « هذا هو صديقنا العربى الفرنسى (مرعى) .. أعتقد أنه سيقدم لك مساعدات جمة هنا .. »

قال (لامبيرت) وهو يضغط بأسنانه على السيجار :

- « تشرفنا .. أنت شاب حديث السن ، لكن ليست لدى تحفظات مسبقة .. العلم لا سن له .. »

قلت فى تواضع :

- « لكن الخبرة لها سن .. لهذا أعتقد أننى سأكون تلميذاً لك .. »

لوح بيده فى عصبية .. وإن أدركت أن حجر المجاملة الذى قذفته أحدث دوائر فى روحه ..

قال وهو يمضغ سيجاره :

- « معى هنا د. (مايرز) الألمانى .. يمكنك أن تعتبر أننا مسئولان عن المختبر معًا .. لو أردت أن تمتدح المكان فأنا جاهز .. لو أردت أن تنتقده فد. (مايرز) جاهز ! »

ضحكت لهذه العبارة ، لأجد يدى فجأة بين أنامل قوية مكتنزة لرجل أصلع الرأس ملتح بصلافحلى .. بدوره كان يمضغ سيجارًا هائل الحجم ، وقد قال لى وهو ينظر من وراء عوينات مستديرة غليظة :

ـ « فيلكومن .. شون .. زير شون .. »

نظرت مستغيثًا إلى كاريبرا ، فقال ضاحكًا :

ـ « لا تخف .. هو يجيد الفرنسية ، لكنه يحب أن يثبت للناس أنه ألمانى قبل كل شىء .. »

كان البروفسور (مايرز) هذا يجلس على مقعد ثلاثى ذى عجلات ، يتنقل به فى وضع الجلوس ، فلما صافحنى انزلق بالمقعد ليعود إلى المنضدة التى كان يعمل عليها ..

ما أغرب هذه العوينات !.. إنها تبدو كالعيون المقلوعة فعلاً !

لاحظ دهشتى ، فقال وهو يرفع عينًا منها بالجفت :

ـ « عيون ثيران ..!.. هى ما تحسب أنك تراه فعلاً ..!.. أنا متحمس لهذا النوع من مزارع البكتريا .. يقولون أننى عتيق الطراز ، لكنى مصر على أن عيون الثيران والبطاطس وسيطان ممتازان .. »

قال الفرنسي في شيء من السخرية :

- « أنت آت من معهد باستير ! لهذا تعرف أساليب الألمان غير الفعالة .. إنهم يجمعون بين الغرور وعدم الكفاءة .. »

قال الألماني في ضيق :

- « وأنتم الفرنسيين .. مجرد نجوم صحافة .. المهم أن تحضروا المؤتمرات وتلتف حولكم الحسناوات وتجلسوا في المآدب الفاخرة .. بعد أعوام لا يبقى شيء من هذا الذي اكتشفتموه .. »

ضحك (كاربيرا) طويلاً ، وقال لي وهو يجذبني من ذراعي :

- « هذه هي العصبية القومية .. هذا المختبر يضم عالمين شامخين ، لكنهما مصران على حرب ضروس أبدية بين ألمانيا وفرنسا .. على كل حال هذا لا يؤثر في العمل .. »

* * *

4 ـ المشرحة والعيادة النفسية

قسم الأشعة يحتل طابقًا كاملاً من هذا المستشفى ، وقد عرفت الأجهزة بسهولة برغم تقدمها .. لو أن جهازًا من هذه فى سافارى لاهتزت الأرض .. هناك أشعة مقطعية وأشعة رنين مغناطيسى .. أشعة مقطعية ثلاثية الطور .. جهاز رسم الأوعية الرقمى الطرحى DSA .. جهاز PET الذى يجرى فحصًا مقطعيًا بانبعاث البوزيترون ..

ما هذا الثراء ؟!.. كأن كل مال الدولة قد تم صبه فى هذا المختبر .. عم يبحثون ؟..

من الصعب أن يتوقع المرء أن هذه الدولة الشبيهة بنقطة على الخارطة فيها أجهزة أثمن وأحدث من معظم أجهزة أفريقيا بأسرها .. ربما يمكن أن تجد هذه الأجهزة المتقدمة فى جنوب أفريقيا .. فى كيب تاون بالذات ..

لم يكن عدد العاملين هنا كبيرًا .. مجموعة من الفنيين الصموتين الذين ينتقلون كالطيف من جهاز إلى آخر ، وكان هناك

من يجلس خلف نافذة زجاجية يراقب منها جهاز الرنين المغناطيسي الذى رقد عليه مريض أفريقى مسن .

اللحية الملاقة من جديد ، وهذه المرة لرجل ذكى النظرات ، يضع يديه فى جيبى معطفه وينظر إلىّ فى فضول ..

قال (كاربيرا) وهو يضع يده طويلة الأنامل على كتفى :

ـ « هذا د. (مرعى) ضيفنا .. د. (شليمان) رئيس قسم الأشعة .. إنه ألمانى كذلك ، لكن لا تدع هذه النقطة تقلقك .. كلهم يجيد الفرنسية .. »

صافحت الرجل فى توتر ..

ثمة شىء ما غريب فى هذا المستشفى ، لكنى لا أعرف كنهه .. ما موضوع هذه اللحى الكثة ؟.. ما هذه الملامح الغريبة المتصلبة ؟

قال لى (كاربيرا) ونحن نغادر قسم الأشعة :

ـ « هنا تجتمع الكفاءة مع التقدم العلمى لتصنع خليطًا مبهرًا .. والآن أعتقد أنك متعب راغب فى النوم .. هل أنت كذلك ؟ »

نظرت إلى ساعتى فوجدتها الرابعة عصرًا .. ليس موعد نوم إلا لمن هو على سفر مثلى ، والحقيقة أن ذهنى كان مرهقًا إلى درجة أننى صرت راغبًا فى أن أنفرد بنفسى وأغمض جفنى بضع ساعات .. الإرهاق سوف يجعلنى أخطئ ..

ماذا سيفعل الرجل عندما يعرف أننى نصاب ؟.. لا أعرف .. سوف يطردنى طبعًا ، لكن ماذا بوسعه غير ذلك ؟.. ربما يسلمنى للشرطة .. هذا انتحال شخصية لا شك فيه ، ولسوف يكون علىَّ أن أمر بلحظات عصيبة إلى أن يستخدم (بارتلييه) نفوذه واتصالاته ..

إذن يجب أن أنام .. من ناحية لأستريح ، ومن ناحية لأقلل فرص الاحتكاك بيننا ..

أسبوع !.. رباه !.. شد ما هو طويل !

* * *

اقتادتنى ممرضة أسبانية حسناء إلى جناح هادئ تغمره إضاءة زرقاء جميلة ، وناولتنى بطاقة إلكترونية ، وابتسمت قائلة بفرنسية مضحكة ساحرة :

ـ « غرفة ثالثة .. يمين .. »

فى هذه اللحظة سمعت صراخًا مروعًا .. صراخًا جعل قلبى يسقط فى قدمى ..

تركتها وجريت مسرعًا لأخرج من تلك الجناح ، وفى الممر الخارجى رأيت رجلاً وسيدة مسنة أفريقيين يمسكان بفتاة شابة سوداء تقاوم كأنها تذبح .. كانت تحاول التملص حتى اضطرا إلى أن يحملاها بالعرض .. أحدهما للساقين والآخر للذراعين .. لكنها كانت تصرخ كمن يحترق فى جهنم ..

طبعًا كان المشهد واضحًا .. هذه ليست محاولة اختطاف ، بل الفتاة فى حالة هستيرية مرعبة ، وقد أدركت أن العجوزين يسيطران عليها بصعوبة كأنها خنزير برى ..

ظهر بعض الممرضين وبعض الممرضات وراحوا يتعاونون على حمل الخنزير البرى إلى عيادة كتب عليها (العيادة النفسية) .. يبدو أنهم كانوا ذاهبين إليها فعلاً ، لولا أن الهياج استبد بالفتاة ..

دخلت معهم لأجد نفسي في عيادة أنيقة تمتلأ هوؤها بالدخان .. هناك طبيب ملتح نصف أصلع ، يقف في مركز الغرفة وقد دس يديه في خاصرته ، يراقب الموقف ..

قال لإحدى الممرضات بالأسبانية ما أعتقد أنه :

ـ « ديلى أن بوتشو دى ديازبيام .. »

لم أفهم سوى كلمة (ديازبيام) وهى كافية طبعًا ..

من مكان ما ظهر المحقن ، وعلى الفور تغرس في عروق الفتاة التي أطلقت صرخة ، ثم لعب العقار برأسها فبدأت تهدأ .. لم تنم طبعًا ، لكنها صارت (مسطولة) بالمعنى الحرفي للكلمة ..

قال للممرضات بالأسبانية :

ـ « دخيلا .. »

فانصرفن .. أنا مُصِرّ على أن بوسعك فهم 60٪ من أية لغة بالإيماءات . نظر إلىّ ولم يقل شيئاً عن انصرافي .. فقط جلس على مقعد خلف الفتاة وراح يكلمها .. يكلمها بالأسبانية وبصوت هادئ رخيم ، فبدأت تتكلم .. تتكلم ناعمة وبصوت هادئ .. تتكلم كثيرًا جدًا ..

لاحظت أنه أشعل سيجارًا وهو يكلمها ، وراح ينفث سحابة دخان كثيفة .. هذا المنظر مألوف لى ، لكن أين ؟.. واضح أن هذا المستشفى لا يعلق أهمية كبيرة على التدخين .

اتجهت إلى الباب فقابلت د. (كاريرا) .. كان يبتسم ابتسامته اللزجة ويراقب الموقف ..

قال لى بصوت هامس ، وهو يقتادنى إلى الخارج :

ـ « د. (فرايدمان) حجة فى التحليل النفسى .. إنه ينتزع من الفتاة سبب هذه النوبة الهستيرية .. كالعادة سوف يتضح أن الأمر يعود لكبت جنسى قوى .. »

قلت له ، وأنا أغلق الباب بخفة من خلفى :

ـ « ألا ترى أن هذه الطريقة صارت عتيقة جدًا ؟.. لم أحسب أن هناك من يمارس التحليل النفسى إلا فى أفلام الخمسينات .. الأبيض والأسود والظلال والرهبة الناجمة عن شعورك بأنك تخترق النفس البشرية .. »

ـ « لدينا أطباء كثيرون يحبون التحليل النفسى .. هو نمسلوى على فكرة .. »

- « إن اسم (فرايدمان) ليس له تفسير آخر .. ألماني أو نمساوي أو مهاجر من هذين البلدين إلى الولايات المتحدة .. »

وما لم أقله هو أن الاسم يهودي كذلك ..

قال لي ، وهو يمشي جواري في الرواق :

- « هل رأيت غرفتك ؟.. لا ؟.. تعال إذن معي نشاهد المزيد من المستشفى ، ثم تظفر براحة مستحقة .. »

لو لم أسمع تلك الصرخة لفررت منه لعدة ساعات .. أمري لله ..

نزلنا في مصعد جدرانه كلها مرايا إلى الطابق الأرضي ، والرجل يثرثر عن المستشفى وعن الخدمات التي يقدمها للمرضى ..

قلت له في غيظ :

- « معلوماتي أن سكان غينيا الاستوائية لا يتجاوزون نصف مليون نسمة ، بينما هذا المستشفى يصلح لعلاج عشرة ملايين .. »

ضحك في لزوجة ، وقال :

ـ « هذه هى فكرة إنشائه .. البحث العلمى لولاً .. الخدمات السياحية ثانية .. هل تصدق أن هذا المستشفى يمكن أن يكون مشروعًا سياحيًا عظيمًا ؟.. السياح يأتون هنا للاستشفاء من الكثير من الأمراض التافهة .. ممثلة السينما التى ترغب فى تصغير أنفها .. الرجل الذى يرغب فى إزالة شحوم بطنه .. هؤلاء يدفعون جيدًا جدًا ، ويستجمون على الساحل رائع الجمال ، ثم يعودون لأوطانهم ليحكوا لأهليهم عن التجربة .. »

دق جرس المصعد فغادرناه ..

هناك فى نهاية الممر خافت الإضاءة ، لمحت الكلمة الرهيبة Autopsy .. التشريح يتم هنا .. لو كنا فى وحدة سافارى لرأيت (جيديون) ومساعده الكورى ..

فتح بابًا ذا زنبرك قوى ودخل ، ثم مد يده يبقيه مفتوحًا كى لا يحطم أنفى ، وفى الداخل كانت هناك جثة راقدة على منضدة رخامية وقد تغطى نصفها بملاءة ، بينما كان البطن مفتوحًا ..

ـ « د. (مارسيل فيليس) .. بلجيكى ..

وجدت أننى أقف أمام طبيب آخر من ذوى اللحية الكثة .. ينظر إلىّ فى فضول وهو يبتسم .. كانت يداه ملوثتين فى قفازهما ؛ لهذا لم يصافحنى ، وإنما قال بالفرنسية :

ـ « مرحبًا .. أنت إذن خبير الهندسة الوراثية ؟ »

قال (كاريبيرا) :

ـ « د. (فيليس) من أهم علماء التشريح والباثولوجيا فى أوروبا .. هو متضايق لأنه لا يوجد شىء جديد فى علم التشريح ، حتى إنه يتمنى لو غزا سكان الفضاء الأرض ليتمكن من جمع معلومات تشريحية جديدة .. »

قلت ضاحكًا :

ـ « هناك ذلك الفيلم المزيف الذى صدعوا رءوسنا به لتشريح مخلوق (روزويل) .. لقد اعترف صناعه اليوم كيف نحتوا ذلك الكائن وكيف ملئوه بأحشاء الدجاج كأنها أحشاؤه .. ربما كان بوسعك أن تشارك فى التشريح .. »

قال الرجل دون أن يضحك :

ـ « ربما لو وجدت إنسانًا جديدًا لأمكننى أن أشـرحه !.. أريد أعضاء تشريحية جديدة ! »

ونظرت إلى عينيه اللامعتين وقلت لنفسى :

ـ « هذا الرجل ليس على ما يرام ! »

* * *

5ـ حيوانات التجارب ..

من جديد عدت لغرفتى ، ودسست البطاقة فى فتحة الباب ، ثم أدرت المقبض .

كانت مظلمة ؛ لذا بحثت فى الظلام عن موضع البطاقة المجاور للباب كى يضاء النور ، وهنا سمعت من يتحرك فى خفة خارج الباب ..

استدرت بسرعة لأجد فتاة .. ممرضة هى .. لاتينية كما هى الموضة هنا ، وصغيرة جدًا وجميلة ومذعورة ..

كانت تنظر حولها كأن الشيطان يطاردها ، واتسعت عيناها حتى إننى ارتجفت خوفًا أنا نفسى ..

قالت لى وهى تضع إصبعًا على شفتيها :

ـ « أنت ذلك الطبيب الفرنسى ؟ »

ـ « فرنسى ؟.. من ؟ »

ثم تذكرت أننى هو .. يا لى من أحمق !..

كانت تتكلم إنجليزية رديئة جدًا .. هذا المستشفى برج بابل حقيقى ، فيه مليون لغة ..

قلت بسرعة :

ـ « أنا هو .. »

كانت جميلة فعلاً ، لكنها خالية من الأنوثة .. يعنى هو وجه طفلة جميلة خائفة لا أكثر ، وقد تذكرت على الفور قصيدة قديمة لنزار قبانى ، يصف فيها حبيبته شديدة البراءة بأنها (ليست امرأة) .. هى من الطراز الذى يشعرك بأنك (عمو) ولابد من أن تحميها من هؤلاء الأوغاد .. من هم ؟.. لا أعرف .. لابد أن هناك بعضهم ..

قالت لى بسرعة :

ـ « لا توجه أسئلة .. أنا أدعى (لوتشيا) ، وأقول لك : إن عليك أن تفر من هذا المستشفى بأسرع ما يمكن ..! »

ـ « لكن ... »

وقبل أن أكمل كلامى كانت تركض مبتعدة لتغيب فى ظلام الممر ..

أنت لم تضيفى جديدًا أيتها الحسناء .. فقط أعدت عزف اللحن الخافت الذى يتردد فى ذهنى .. أنت لعبت الدور الدائم فى كل فيلم غامض (خذ الحذر واهرب) ثم تفرين .. سوف أجدك

مذبوحة غدًا على الأرجح لأنهم عرفوا .. من الذين عرفوا ؟.. الأوغاد طبعًا .. هناك أوغاد ما نمت مذعورة ..

دلفت لحجرتي وأنا أتمنى في صدقٍ ألا يحدث شيء آخر يعطل نومي ..

أضأت النور فرأيت غرفة جديرة بفندق خماسي النجوم .. فيها سرير مريح مرتفع (أحب هذا النوع من الأسرة) من الطراز الذي تغوص فيه لمركز الأرض .. التكييف جيد مع أنه بدأ يعمل منذ ثانيتين .. شرفة تريك البحر بوضوح .. بينما تتدلى غصون أشجار لا أعرف اسمها من حديقة غناء تحتها ..

أباجورة تغرى بالنوم أكثر مما تغرى بالقراءة، وجوار الفراش هناك أرقام الكافتيريا والصيانة .. بالضبط كأنه فندق فعلاً ..

نزعت ثيابي واستلقيت على الفراش .. وبحثت عن هاتفي المحمول ..

نسيت أن أخبرك أنني أخرق .. هكذا ضربت الأباجورة بكوعي فسقطت أرضًا .. كراش !..

يا لها من بداية لوجودي هنا !.. يا للحرج !.. وثبت من فوق الفراش وبحثت عن جريدة رحت أجمع فوقها شظايا الزجاج ..

هنا وجدته .. كان من حسن حظى أننى أخرق .. ربما تسرعت فى الاتصال وكشفت كل شىء ..

ذلك الجهاز ، صغير الحجم ، المتصل بسلك ينساب وراء الكومود .. لا يمكن أن يكون سوى جهاز تنصت ..

رفعت عينى بسرعة إلى السقف ، فوجدت أن المهمة صعبة هذه المرة .. هناك صف من الدوائر الزجاجية التى تستعمل كديكور .. هناك جهاز إطفاء مريب الشكل .. لو كانت هنا كاميرا فمن المستحيل أن أعرف أيها ؛ لأن كل هذه الدوائر البراقة يصلح أى منها ككاميرا .. نحن فى عصر الكاميرا الرقمية الدقيقة التى لاتزيد على حجم قطعة العملة ، والتى لا تتصل بسلك ..

على كل حال ، لو كانوا يراقبوننى بكاميرا فقد عرفوا يقينًا أننى وجدت جهاز التنصت .. لو لم يكونوا يراقبوننى فسوف يحسبون الأمر مجرد خلل اتصال ، إلى أن يدخلوا الغرفة غدًا .. ثم من قال أن هنا جهازًا واحدًا ؟.. ربما وجدت الجهاز الأقرب منالاً ..

على كل حال سوف ألتزم الصمت .. أية مكالمات ستتم وأنا فى الحديقة .. لن أفعل أى شىء فى غرفتى سوى النوم. وتذكرت ساخرًا أحد الجنرالات الأمريكان الذى زار الكرملين فى الاتحاد السوفيتى سابقًا أيام الحرب الباردة ، فقضى الليلة كلها

فى غرفته يقرأ إعلان الاستقلال الأمريكى ويشتم الشيوعية بصوت عال ، وفى الصباح حيّاه المترجم السوفيتى بوجه مكفهر ، وقال له : « إن رأيك فى الشيوعية يجب أن يتغير يا جنرال ! » .. هكذا يكون اللعب على المكشوف !

إنهم يراقبوننى ..

من هم ؟.. (كاربيرا) ورجاله الأوغاد .. ألم نتفق على أن هناك أوغادًا هنا ؟

لكن لماذا ؟.. هل من الطبيعى أن تراقب ضيفًا جاء ليعمل فى وحدتك ؟.. يريدون معرفة ما أعتقده وما أفكر فيه .. لماذا ؟

سوف أنام ، ولآمل أننى لن أتكلم أثناء النوم وأقول أشياء مثل : « أنا لست خبيرًا فى الهندسة الوراثية .. أنا مجرد جاسوس جاهل من وحدة سافارى جئت لأخرب بيوتكم .. »

لو قلت هذا أثناء النوم فأنا أستحق ما سيحدث لى فعلاً !

* * *

كان نومى هادئًا برغم كل شىء ..

أعتقد أننى لم أتقلب لحظة حتى الصباح ، برغم أننى حسبت أننى سأستيقظ فى منتصف الليل .. كنت مرهقًا فعلاً ..

خرجت من الغرفة ، وللمرة الأولى أنا من دون مراقبة أو مرافقة ، لكنى لا أعرف من أين أبدأ .. أعتقد أن علىّ أن أقصد مكتب د. (كاريبيرا) مرة أخرى لأفهم ما علىّ عمله ، وكنت أكره لقاء اليوم الثانى مع الرئيس الجديد دائمًا ؛ لأننى تعلمت من خبرتى أن المرح ينتهى وأنه يصير سمجًا حازمًا فى اليوم الثانى .. كلهم كذلك .. كأنه يقول لى : أمس كان الخمر واليوم الأمر !!.. انتهى التدليل يا صغيرى ..

مشيت بين ممرات المستشفى أقابل من حين لآخر ممرضًا أو ممرضة يحمل سمات أسبانية لا شك فيها .. كلية الطب الوحيدة فى البلاد كوبية ، كما عرفت فيما بعد ..

هنا .. سمعت صوت نباح ، ورأيت مشهدًا لا يصدق ..

هناك رجل شرطة يشبه شرطة الكلاب عندنا ـ عندما كانوا موجودين ـ بحذاء ذى رقبة عالية ، وفى يده عصا حديدية بأنشوطة فى نهايتها ، وهو يجر كلبًا هائجًا يتساقط اللعاب من فمه وهو ينبح ..

كان ميزان القوة مختلاً ؛ لذا اكتفى الكلب بأن يدفن أطرافه فى الأرض الزلقة ليجره الرجل جرًا محدثًا صوت حفيف ..

مر جواری فوثبت جانبًا لأبتعد عن الكلب ؛ لأننى خمنت أنه مسعور على الأرجح .. هذا اللعاب الغزير لا يبعث الراحة فى النفس ..

انفتح باب المختبر وظهر د. (لامبيرت) الفرنسى وفى فمه السيجار .. رأى الكلب فقال عبارة استحسان بالأسبانية ، وشعرت من عينيه أنه سيأكله مثلاً ..

ثم تنحى عن الباب ، بينما الرجل يجر فريسته إلى الداخل ..

رآنى (لامبيرت) أرقب المشهد فى دهشة ، فضحك فى افتعال وقال :

ـ « مرحبًا .. هل نمت جيدًا ؟ »

قلت دون أن أرد على سؤاله :

ـ « ماذا تفعلون بالكلاب فى المختبر ؟ »

ـ « لا شىء .. المزيد من البحث العلمى فى فيروسات الدماغ .. لاحظ أنه كلب مسعور ، ومعنى هذا أنه مصدر فيروسات ممتاز .. »

ـ « ألم يقم باستير بكل شىء فى هذا الصدد ؟ »

ضحك طويلاً ، وقال وهو ينفض رماد سيجاره على الأرض :

ـ « أنت قادم من معهد باستير ؛ لهذا تعتقد أن الرجل عرف كل شيء .. إن العلم نهر لا تكفيك منه بضع رشفات بكفك .. »

ثم وضع يده على كتفي واقتادني إلى الداخل ، حيث لم يكن هناك أثر للكلب لحسن الحظ .. لقد غاب في قفص ما ..

قال لي في حرارة :

ـ « ولكن أريد أن تحدثني عن معهد باستير قليلاً .. أنا لم أره قط .. جميل أن يكون هناك معهد كامل يحمل اسم هذا الرجل الذي أفنى حياته في مطاردة الفيروسات والبكتريا .. هلم .. صفه لي ! »

شعرت بتوتر ؛ لأن هذا امتحان آخر ، لكن (بارتلبيه) ـ لحسن الحظ ـ كان ثرثارًا وقد وصف لي المعهد كمن رآه .. النافورة .. تمثال الفتى الذي يعضه الكلب .. قاعة المؤتمرات .. المختبرات ..

رحت أتكلم ، والرجل يصغي لي في اهتمام ، ووجهه يحمر انفعالاً .. هل أنا أحلم أم إن دمعة توشك على الترقرق في عينيه ؟!

ما كل هذا الحماس ؟!..

قلت له ضمن قصتي :

ـ « لقد خلدوا الرجل حتى على مستوى اللغة .. »

قال في اهتمام :

ـ « ماذا تعني ؟ »

ـ « أعنى أنه صارت هناك كلمة اسمها (بسترة) ، وهناك اللبن المبستر .. »

عاد يسأل فى سذاجة غريبة :

ـ « لبن مبستر ؟.. هذا غريب ! »

هل هذا الرجل مجنون ؟!.. يبدو كأنه لم يسمع قط عن اللبن المبستر ، وهو خبير ميكروبات .. وما سر كل هذا الفخر والحماس ؟!.. للحظة شعرت بأننى أكلم (باستير) ذاته الذى يشعر بالفخر لما صارت له ذكراه ..

ماذا يدور هنا ؟!

* * *

6ـ مختبر الهندسة الجزيئية ..

هو ذا أخيرًا ..

أراه فى نهاية الممر وأنا أمشى له مع (كاريبرا) ، فأتذكر (الميل الأخضر) الذى يقطعه المحكوم عليهم بالإعدام نحو غرفة الإعدام ..

قدماى ثقيلتان ولا أرغب فى التقدم .. لكن لابد منه ..

قال (كاريبرا) وهو يفتح الباب الذى كتب عليه : Molecular genetics

ـ « أعتقد أنك مسرور بالعودة لعالمك الحقيقى .. هنا عنصرك الأصلى .. كما تشعر السمكة لدى إعادتها للماء .. »

قلت فى حماس ، وأنا موشك على البكاء :

ـ « أحماض نووية !.. قواعد !.. كودونات !.. ما أروع هذا ! »

ثم أخذنى التهريج بعيدًا عن الشاطئ ، فقلت :

ـ « أحيانًا أتمنى لو صارت الكروموسومات فتيات جميلات أتزوجهن وأستريح ! »

في الداخل كان كل شيء يتفق مع صورتي عن مختبر هندسة وراثية .. نفس الأجهزة والكمبيوترات التي لا تكف عن الهدير ، والثلاجات و ... كل شيء ما عدا البشر .. كنت أتوقع أن أجد المكان مزدحمًا بوجوه صارمة عاكفة على أجهزة الميكروسكوب ، لكن ما رأيته هو معمل خال تمامًا ، فلا يوجد سوى طبيب كوري أو ياباني يفحص بعض العينات عبر مجهر ضخم .

قال لي وهو يشير إلى الياباني :

ـ « د. (ماوازاكي) هو خبير (موت الخلايا المبرمج) هنا .. وهو يفحص أسباب موت الخلايا في مجموعة من الأنسجة .. كنا نأمل في أن تساعده قدر الإمكان .. »

موت الخلايا المبرمج أو الـ apoptosis هو نوع من الموت للخلايا بناء على شفرة جينية يحملها المرء منا ، وبعبارة أخرى : كل خلية في جسدنا جاءت العالم وهي تعرف متى ينتهي أمرها ومتى يتسرب لها الكالسيوم وتنكمش نواتها ..

إن وجودنا يقوم على التوازن الدقيق بين موت الخلايا وخلودها .. إن تَمُتِ الخلايا أكثر من اللازم يهلك الكائن أو يشيخ بسرعة ، وإن صارت الخلايا خالدة فالسرطان على الأبواب .. هذا التوازن الرباني الدقيق هو ناموس الحياة .. لكن كيف تطيل عمر الخلية دون أن تعرضها للسرطان ؟.. تلك هي المسألة ..

هذا لغز هائل حير العلماء ، لكن هناك جيوشًا جرارة من الباحثين تعكف على دراسة الموضوع بالتفصيل .. إنهم يجمعون المعلومات بلا توقف ..

نهض الطبيب الياباني وقد بدا أنه أصيب بالحول من التحديق في المجهر ، برغم أن الصورة تعرض على شاشة عملاقة ، وهز رأسه محييًا وقال بالفرنسية :

ـ « سأتشرف بالعمل معك .. إن أبحاثك مهمة جدًا .. »

ـ « وأنا كذلك .. هذا شرف لى .. »

أنت إذن رجلى الذى سيفضح أمرى .. جميل أن يعرف المرء شكل جلاده مبكرًا ..

قال (كاربيرا) وهو يتراجع :

ـ « سوف أترككما معًا ، ولا شك أنكما ستجدان التفاهم سهلاً .. »

ثم نظر إلى اليابانى نظرة طويلة لم أفهم معناها ، وابتعد ...

عندما انغلق الباب عاد اليابانى يفحص العينات التى أمامه ، ثم قال لى بلهجة عابرة :

ـ « ما هى سياستكم بصدد التيلوميريز ؟.. إننى عملت لفترة على الكاثبسين ، لكن لا خبرة لى بالتيلوميريز .. على الأقل ليس فى حيوانات المختبر .. »

قلت وأنا أزن كلماتي :

ـ « إن التيلوميريز مشكلة تـؤرق الشباب من الجنسين ...أ.. تؤرق علماء معهد باستير ، لكنهم تغلبوا عليها .. هذا كلام كثير ليس هنا مجاله ، دعك من أن بعضه سر .. »

هنا أمسك بقطعة ورق ، وبدأ يخط عليها وهو يتكلم بصوت عال :

ـ « تخيل أن التيلوميريز يعمل هنا .. بعض الباحثين استطاعوا وقفه هنا .. وهنا .. و ... »

لكنه على الورق لم يخط حرفًا مما يقول ..

كنت أرى بوضوح الرسالة التي يكتبها بالفرنسية :

ـ « أنت لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. لا تعتقد أنك خدعت أحدًا .. يجب أن تفهم أن هذا المختبر مراقب بعدة أجهزة تنصت وأكثر من كاميرا مراقبة .. »

إذن هو يعرف أن كاميرا المراقبة لا تقدر على قراءة المكتوب على الورق .. يعرف أني جاهل كذلك ..

ثم قال لي بصوت عال :

ـ « أين تقومون أنتم بقطع التيلوميريز ؟ »

تناولت الورقة ، والقلم وكتبت :

ـ « لماذا ؟.. لماذا يراقبون المختبر ؟ »

وناولته الورقة ، وقلت فى جدية بصوت عال :

ـ « أعتقد أن المشكلة يمكن حلها هنا .. فكّر فى الكاسبيز والكالبين .. »

أمسك بالورقة وكتب :

ـ « ألم تفهم بعد أنه ليس بوسعك ولا بوسعى الرحيل ؟.. نحن سجينان هنا ! »

نظرت إليه فى رعب فضحك ضحكة مشرقة معناها (تماسك) ، ثم مزق الورقة بخفة وتخلص منها ، وعاد يفحص شاشة المجهر ..

قلت فى عصبية وقد نسيت طريقة التمثيل هذه :

ـ « أنا باق هنا حتى ينتهى الأسبوع .. بعد هذا لا توجد قوة فى الأرض تبقينى ساعة أخرى .. »

قال فى تهكم :

ـ « أنت تقول ! »

* * *

إذن أنا لم أخدع أحدًا ، وهو ما توقعته .. عندما يطلبون منك أن تلعب مع فريق الأهلى فى نهاية الكأس وأنت لم تمس كرة القدم طوال حياتك ، فأنت تحتاج إلى ما هو أكثر من معجزة حتى لا يفتضح أمرك ..

لك السؤال : لماذا يخفون عنى أنهم عرفوا ؟.. هل يتركون لى المزيد من الحبل كى أشنق نفسى به ؟.. هل يتسلون ؟..

لا أعرف ؟.. لكنهم أزاحوا عبئًا عظيمًا عن كاهلى على كل حال .. ليس علىَّ أن أتظاهر بأننى عبقرى الوراثة .. أنا أعرف نفسى جيدًا .. أنا جراح أملك نفسية جراح وعدوانيته وسرعة مللـه . ولا أطيق أن أغرق فى تلك الرموز الوراثية المعقدة ولا كل تعقيدات الهندسة الجزيئية تلك ..

لقد فهمت أن المكان غريب . وفهمت أننى سجين .. لكن لم أفهم لماذا ..

ماذا يدور هنا ؟

تلقيت الإجابة وقت الغداء ، عندما مشيت مع اليابانى متجهين إلى الكافتيريا .. هذه وجبتى الأولى هنا ..

هنا فوجئت بالدكتور (كاريبيرا) ينفجر صارخًا فى طبيب .. والطبيب لا يتكلم تقريبًا ..

كان الطبيب يضغط بين أسنانه على سيجار ، ويتظاهر بأن الكلام غير موجه إليه . دققت النظر فأدركت أنه د. (فريدمان) الطبيب النفسي .. ماذا هنالك ؟

كان (كاربيرا) يصيح بخليط من الأسبانية والفرنسية فهمت بعضه :

ــ « سيجار مرة أخرى !!.. قلت لك يا د. (فريدمان) أن تتوقف عن مص أسطوانات السم هذه .. لقد أصابتك بالسرطان في المرة الأولى و ... »

وفجأة التفت للخلف فرآني .. هدأ مرة واحدة وقال لي :

ــ « أ ... معذرة .. أنا لا أطيق التدخين في مستشفاي .. »

معه حق .. لكن لماذا يدخن هو كمحرقة الجثث ؟!.. وما موضوع إصابته بالسرطان من قبل ؟.. ولماذا بتر كلامه عندما رآني ؟

يبدو أن هذا يوم الصراخ العالمي ؛ لأنني فوجئت بطبيبين يتشاجران بالفرنسية وقد التف حولهما عدد من المراقبين الذين بدا عليهم الاستمتاع ..

الرجل الأول كان ملتحيًا كالعادة ، لكنْ في وجه طابعًا عربيًّا أكيدًا .. غريب هذا .. هل يوجد عرب هنا ؟

كان يقول وهو يرتجف غضبًا :

ـ « أنت لص .. »

الآخر كان باردًا .. رجل له طابع بريطاني واضح ، يدس يديه في جيبي معطفه ويحاول ألا ينفعل .. فقط يقول في ثبات :

ـ « هذا ما تقوله أنت وهو ليس صحيحًا .. أنا مثلاً أرى أنك مجنون .. فهل هي حجة دامغة ؟ »

قال الأول عربي الطابع :

ـ « كل أوراقي العلمية عن الموضوع تسرقها أنت وتضع اسمك عليها .. لا تقل أن هذا توارد خواطر .. فجأة صارت الدورة الرئوية أهم موضوع يشغلك ، وقد كنت لا تهتم بها من قبل .. »

قال الآخر في برود :

ـ « صرت أهتم .. لا تقل أنك ستأمر بإعدامي لهذا .. »

من جديد (شخط) فيهما د. (كاريبرا) بالأسبانية .. كان غاضبًا فعلاً والشرر يتطاير من عينيه ، ثم قال مفسرًا الأمر ، وقد رأى دهشتي :

ـ « عالمان عظيمان ، لكنهما يتصرفان بطفولة .. سوف أحتاج إلى وقت طويل كى أجد عالمًا عبقريًا ليس فى طباعه شىء من الطفولة ! »

كان يثير اشمئزازى بوجهه الطويل الممصوص ونظرة الأوغاد فى عينيه .. هذا فأر مخادع ولا شك فى هذا ..

واصل الكلام :

ـ « هذان خبيران فى علم الباثولوجيا .. د. (كريم مختار) من أصل عربى .. د. (ويليام هارتمان) بريطانى ، ومن الغريب أنهما مهتمان جدًا بذات الموضوع .. »

وهكذا دخلنا إلى الكافتيريا ، وحملت صينية ، اتجهت بها إلى الطاهى فى صف قصير لآخذ بعض الخضر المسلوقة وشريحة لحم وبعض المكرونة الدقيقة (نودلز) .. طبعًا لا أنوى أكل اللحم .. واتجهت لأجلس إلى منضدة شبه فارغة ..

جلس ذلك الطبيب جوارى .. إنه ملتح كالعادة .. له ذلك الطابع الغريب المميز للأطباء هنا .

تبادلنا التحية ، فقال وهو يقلب ما فى طبقه مرة واحدة :

ـ « ألكسندر لايتنج .. أسكتلندى .. »

حييته وابتسمت .. لست متبحرًا فى اللهجات ، لكن طريقته تذكرنى بالتطجين الذى أسمعه فى الأفلام .. هناك تطجين أسترالى وتطجين أسكتلندى وتطجين نيوزلندى وتطجين بصلصة الصويا و ...

مد يده إلى سلة بها بعض الخبز فى وسط المنضدة .. وسألنى :

ـ « هل أحببت (غينيا الاستوائية) ؟ »

ـ « لم أرها إلا لفترة قصيرة ، وما رأيت لم يرق لى .. »

ضحك واحمر وجهه ، وقال :

ـ « لا تعلن رأيك .. هذا بلد قمعى بالمعنى الحرفى للكلمة ، والجدران لها آذان .. سوف تختفى ويبلغون سفارة بلدك بأنهم يبذلون جهدًا جبارًا للعثور عليك .. لن يحتج أحد لأن البترول أهم منك .. لهذا سيصمتون ويصير الجميع سعداء .. »

وفجأة اقتطع لقمة من الرغيف .. كانت مغطاة بعفن الخبز الأسود .. يا للقرف !.. حسبته مشمئزًا ، لكنه نظر إليه فى انبهار .. ثم وضع اللقمة فى جيب المعطف !

هنا فقط بدأت أشعر بصداع عنيف ..

هذا التصرف مألوف .. مألوف أكثر من اللازم ..

(ألكسندر فليمنج Fleming) !

* * *

7ـ البـوابـة ..

كانت واقفة تصدر تعليماتها لمجموعة من الممرضات ، وقد خفضن الرءوس واحتقنت وجوههن .. واضح أن هذا لوم .. لوم أسباني ممتاز جدًا..

الأخت (ماري) رئيسة التمريض الحازمة قوية الشخصية .. دنوت منها ووقفت متهيبًا ، حتى شعرت بوجودي ، فنظرت إليّ وقالت بلهجة راقية :

ـ « هل من شيء يا دكتور ؟ »

سألتها وأنا أنظر حولي :

ـ « هل تعرفين ممرضة اسمها (لوتشيا) ؟.. فتاة شابة رقيقة مذعورة بشكل مميز .. قالت لي أشياء غريبة ثم ... »

ابتسمت بطريقة أرستقراطية وقالت :

ـ « هل تعرف كم ممرضة هنا تحمل اسم (لوتشيا) ؟.. على الأقل هناك عشر منهن .. لابد أن خمسًا منهن شابات رقيقات مذعورات .. »

قلت فى حماسة :

- « جميل .. معنى هذا أن علىّ أن ابحث بين خمس فتيات .. هذه مهمة سهلة .. »

- « للأسف لا .. وقتى لا يسمح بهذا .. وارجو أن تعطينى سببًا واضحًا لهذا الطلب .. »

- « لا أستطيع .. »

- « وكذلك أنا .. آسفة .. »

واستدارت لتواجه الممرضات مواصلة عملية التوبيخ بالأسبانية .

شتمتها فى سرى ، وتركتها واتجهت إلى مختبر الهندسة الوراثية .. هناك كمبيوتران يتصلان بشبكة الإنترنت .. سوف أرسل رسالة بالبريد الإلكترونى إلى (برنادت) أو (بارتلبيه)..

دخلت المختبر وجلست أمام شاشة الجهاز ، ودخلت إلى صندوق بريدى فى (ياهووه) ..

هنا لاحظت فى دهشة أنه لا توجد خطابات .. مستحيل ألا تكون (برنادت) أرسلت لى أى خطاب منذ سافرت .. أعرف أن هذا مستحيل ..

بدأت أكتب خطابًا قصيرًا لها أخبرها أنني بخير ، ومدفوعًا بحافز خَفِيٍّ لرسلته لعنوانها وعنواني أنا كذلك .. وانتظرت بعض الوقت .. لا شيء .. المزيد من الوقت .. لا شيء ..

هذا يعني ببساطة أن عملية تصفية محكمة تمنع وصول الخطابات من وإلى صندوق بريدي .. هم هنا يعرفون بريدي الإلكتروني على كل حال ، فإما أنهم يحتجزون رسائلي أنا فقط أو يحتجزون كل الرسائل ..

لم يكن هنا أحد ، فمددت يدي في جيبي ، وأخرجت جهاز المحمول الصغير ، وحاولت الاتصال بالكاميرون .. لم تكن هناك شبكة على الإطلاق .. غادرت المختبر وجربت الشيء ذاته في الخارج .. لم يحدث شيء .. لا توجد شبكة ..

جدران هذا المستشفى تعزل أية إشارات .. هذه حقيقة ..

إنه سجن كامل فعلاً .. يبدو أن الياباني لم يكن يمزح ..

* * *

ـ « ممنوع الخروج يا دكتور .. »

قالها لى رجل الأمن الأسود ضخم الجثة الجالس جوار الباب الزجاجى الذى يقود إلى حديقة المستشفى .. ونهض ليبرهن لى على أنه جاد .. لابد أن طوله متران ، برغم ما فى هذا من مبالغة ..

صحت فى عصبية :

ـ « أنا طبيب هنا ، ومن حقى الدخول والخروج أنى شئت .. »

قال فى تهذيب يمتزج بالحزم والشراسة ، بالطريقة التى يعرف كل رجال الأمن كيف يصطنعونها ..

ـ « لا يوجد موقف شخصى ضدك .. هات لى تصريحًا من د. (كاربيرا) وأنا تحت أمرك .. »

نظرت فى عينه فلم أر إلا نظرة غبية كنظرة كلب الحراسة الذى لا يرتشى ولا يتفاهم .. لن يسمح لى بالخروج فعلاً ..

عدت مسرعًا إلى الداخل ، وهرعت إلى مكتب (كاربيرا) فلم أجده .. سوف يكون اللقاء عصبيًا لأننى سأنفجر فى وجهه ليشرح لى سبب هذا السجن .. لو كان يشك فى أمرى ـ ومعه حق ـ فليطردنى أو يسلمنى للشرطة ، لكن ليس من حق أية جهة غير حكومية أن تحدد إقامتى ..

عدت لغرفتى وأخرجت ورقة ، وبدأت أكتب عليها وفى نيتى حرقها بمجرد أن أنتهى :

ـ « لا أعرف كيف تم هذا ولا متى .. لكن هذا المستشفى يديره أطباء الماضى العظام ..!.. تكلم عن الاستنساخ أو تناسخ الأرواح .. فلا تفسير عندى سوى أن هذه هى الحقيقة ..

الدكتور الذى يجمع عفن الخبز .. لا يوجد دكتور يفعل ذلك اليوم ، لكنّ هناك واحدًا قديمًا هو (فلمنج) مكتشف البنسللين .. لقد وجد أن العفن يذيب مزارع البكتريا السبحية ، وحاول أن يعرف المادة التى تُحدِث هذا الأثر ، وعزلها وأطلق عليها اسم (البنسللين) ؛ لينال على ذلك جائزة نوبل عام 1945 .. وماذا عن طبيب المختبر الذى يجمع الكلاب المسعورة والذى يريد معرفة كل شىء عن (باستير Pasteur) ؟.. تلك اللهفة توحى لى بباستير نفسه !.. إنه فرنسى فى منافسة عاتية مع عالم ألمانى أصلع بصر على أن يجرب مزارعه فى عيون الثيران وعلى البطاطس .. لو سألت جهاز كمبيوتر لقال لك أننا نتكلم عن (كوخ Koch) .. قيصر البكتريا .. الذى أنقذ العالم من

وباء الدرن والكوليرا والجمرة الخبيثة ، والذى طالما احتقر أعمال باستير ، واعتبره مجرد مهرج مولع بالصحافة .. »

وابتلعت ريقى وعدت أعتصر ذهنى محاولاً التذكر :

ـ « عالم ذو أصل عربى فى خلاف مع عالم بريطانى حول الدورة الدموية .. نحن نتكلم عن (ابن النفيس) الذى اكتشف الدورة الرئوية والتاجية ، ثم بعد قرون جاء طبيب بريطانى اسمه (ويليام هارفى) درس فى الجامعة التى تحوى مخطوطات (ابن النفيس) ، وخرج على العالم زاعمًا أنه مكتشف الدورة الرئوية .. هذا ليس تخريفًا تحركه العصبية القبلية ، بل هو موضوع رسالة دكتوراه قدمها د. (الططاوى) فى ألمانيا وحازت على إعجاب الجميع .. كان اسمها (الدورة الرئوية طبقًا للقرشى) .. القرشى هو ابن النفيس طبعًا ..

رئيس قسم الأشعة .. أليست هذه ملامح (رونتجن Roentgen) مكتشف الأشعة ذاته ؟.. وماذا عن عبقرى التشريح فى الطابق السفلى الذى يبحث عن بشر جدد يشرحهم .. (فيساليوس Vesalius) البلجيكى العظيم الذى أسس علم التشريح .. ألا يبدو مثل هذا الرجل بالضبط ؟

أما عن رئيسة التمريض الحازمة الرقيقة المهيبة ، فملامحها لا تثير أسئلة .. إنها (فلورانس نايتنجيل Nightingale) رائدة التمريض البريطانية في حرب القرم .. التي كان المرضى يلثمون ظلها عندما تمشي في العنابر ليلاً ، ويطلقون عليها (سيدة المصباح) لأنها كانت تحمل مصباحًا على الدوام ..

أما (فريدمان) اليهودي النمساوي المولع بالتحليل النفسي .. الذي لا يكف عن تدخين السيجار ، وأصيب بالسرطان من قبل لكنه مصر على التدخين .. أنت تعرف من هو فلن أهين ذكاءك بكتابة اسمه .. »

ما لم أعرفه ..

ما لم يعرفه العالم ..

هو أن هذا المستشفى أعظم مستشفى على مر العصور ومنذ فجر التاريخ !..

إن الطاقم هو أعظم طاقم أطباء عرفه التاريخ !

لكن كيف ؟!

* * *

8- القبــو..

تحترق الورقة ومعها عشرات الأسئلة ..

تحترق ..

الحقيقة أننى أصبت بالبارانويا ، لدرجة أننى رحت أبعثر الرماد ، وفى ذهنى أنهم يستعيدون الكتابة على الورق المحروق ، بطريقة كيميائية تتضمن وضع الورقة بين لوحى زجاج مع مغنسيوم وكحول .. شىء كهذا ..

كنت أرتجف ..

ارتجف ..

(علاء عبد العظيم) .. علاء المذعور برغم أنه رأى كل شىء من قبل ، لكنه رأى كل شىء قابل للتصديق ، الأمر هنا يختلف .. هذا كابوس ..

(علاء عبد العظيم) الأحمق الذى صار يؤمن بالخرافات ..

(علاء عبد العظيم) المنطقى .. من قال أنها خرافات ؟!.. هناك جزء علمى لا شك فيه فى هذا كله ..

* * *

خرجت من غرفتي ، ومشيت متوجسًا في الممر ..

لا أريد أن أرى أحدًا أو يراني أحد .. مستشفى المجانين العملاق هذا الذي أنا سجين فيه .. لا .. لست سجينًا .. ما زال بوسعي أن أثب من النافذة ..

لكني أؤجل هذا الحل الرهيب بعض الوقت ..

رأيت من يمشي في الممر قادمًا نحوي .. عندما اقترب أدركت أنه د. (فريدمان) المختص النفسي اليهودي .. باختصار (فرويد) في صورته الجديدة ..

كان يمشي ساهمًا والعرق يغمر جبينه .. نظر إليّ نظرة عابرة وواصل المشي ..

كان يجب أن أتكلم .. قلت له بصوت عالٍ :

ـ « د. (فريدمان) .. هل أجهزة المحمول كلها لا تعمل هنا ؟ »

لم يرد وواصل المشي ..

هل هو ثمل ؟.. ثمة شيء غير طبيعي في مشيته هذه .. هل هو ...؟

فى اللحظة التالية سقط على الأرض كبالون مثقوب .. هرعت لأراه فوجدت أنه لا يتحرك على الإطلاق .. وجهه .. وجهه .. ماذا أصاب وجهه ؟!

إنه لزج يسيل ، بالمعنى الحرفى للكلمة ..

لمست خده فالتصقت تلك المادة اللزجة المقززة بأناملى .. ورأيت بعض العظام تحت هذه القشرة التى تذوب ببطء ..

إن لحم وجهه يذوب فعلاً .. أنا لا أتوهم .

هذا الرجل يتحلل !

رأيت مشهدًا كهذا منذ سنين ، مع هؤلاء الأشخاص المجمدين الذين كانوا يغادرون ثلاجاتهم .. وأحدهم سقط أمامى وتحلل ف لحظات .. نفس الانطباع ..

ركضت مذعورًا .. ركضت كما لم أجر من قبل ..

ركبت المصعد قاصدًا مكتب (كاريبرا) وقد اقتحمته بالمعنى الحرفى للكلمة ..

كانت السكرتيرة الحسناء تقف جواره توقع بعض الأوراق ، وقد رفع عينيه والسيجار ذو المبسم بين أنامله ، وتقلص وجهه ونظر إلىّ فى لا مبالاة من وراء المكتب ..

ـ « د. (فريدمان) !.. لقد هلك !.. ذاب أمام عينى ! »

نظر إلىّ فى برود ، ثم أشار إلى مقعد :

ـ « هلا جلست ؟.. (إيفا) .. هلا جلبت مشروبًا باردًا لهذا الشاب ؟ »

ثم تحسس شاربه كما يفعل الأوغاد ، وقال :

ـ « هذا هو رابع شخص نفقده فى فترة قصيرة .. هذه هى المشكلة .. يتحللون فجأة .. »

نظرت إليه فى دهشة .. عم يتكلم ؟

قال وهو يشعل سيجاره :

ـ « نحن عاكفون على حل هذه المشكلة ، ولهذا طلبت من يساعدنا من معهد باستير .. »

صحت فى عصبية :

ـ « أنا لا أفهم عن أى شىء تتكلم ، لكننى أريد بقوة الرحيل من هنا .. أنا لن أبقى هنا لحظة أخرى » .

قال ببرود :

ـ « فلنتكلم بصراحة .. اسمع يا صديقى .. لن تغادر هذا المكان قبل إتمام مهمتك .. عندها تحصل على أجرك كاملاً .. أجرك وحريتك .. وحتى ذلك الحين فأنت غير مسموح لك بتوجيه الأسئلة .. »

ـ « أنا أريد معرفة شيء واحد .. هل هؤلاء القوم حقًا من أتصور أنهم هم ؟ »

ـ « لا أبالى بما تتصوره ولن أعطى تفسيرات .. أرجو أن تعود إلى المختبر الآن ... »

تصاعد غيظى .. التوتر عندما يتزايد يتحول إلى غضب مجنون ، وهذه هى اللحظة التى يقتلون فيها .. هكذا نهضت وصحت :

ـ « ليس من حق أحد أن يرغمنى على البقاء فى مكان ما .. أنا مستقيل .. »

ـ « لست موظفًا عندى لتستقيل .. »

ـ « إذن أنا راحل .. منصرف .. هارب .. مغادر .. مشمئز .. أى شيء .. سمِّ تصرفى ما أردت .. »

واندفعت خارجًا من المكتب ، ليمسك بى رجلا أمن أفريقيان لا أعرف كيف سمعا المحادثة ..

ـ « اهدأ يا دكتور .. »

ـ « لا نريد عنفًا .. »

(علاء عبد العظيم) المشاكس الأحمق يركل أحد الرجلين فى قصبة رجله فى موضع مؤلم للغاية ، ثم يركل الآخر فى أسفل بطنه ..

(علاء عبد العظيم) الرشيق يثب فوق الرجل الذى تكوم على ركبتيه محاولاً الفرار ..

طبعًا ليتلقى ضربة قوية بمقبض مسدس على رأسه ..

هذه الضربة جربتها مع أناس كثيرين ، لكنها لا تحدث أى أثر تقريبًا ، فلماذا تنجح معى دائمًا وأفقد وعيى ؟

لابد أنهم يضربون نقطة محددة يعرفونها جيدًا ..

(علاء عبد العظيم) الطفل النائم الذى ملأ الدنيا صراخًا ، ثم صمت فجأة كأن بطارياته فرغت ..

* * *

كنت فى قبو ..

كنت مقيدًا إلى مقعد .. وكان (كاربيرا) يقف جوارى يراقب وجهى .. هناك رجل أسود يبدو أنه مهم كذلك .. يلبس بذلة مدنية أنيقة .. لكن لتقطع ذراعى إن لم يكن عسكريًا .. عيناه بيضاوان واسعتان تنظران إلىّ فى نهم ..

غثيان شديد يغمرنى .. أريد أن أفرغ معدتى ، لكن لأقاوم هذا ؛ لأنى لو فعلت وأنا مقيد لأفرغت كل شىء على سروالى ..

المشكلة هى أن هذه الحبال محكمة ومن نوع ثمين ، فلا أمل أن تنزلق أثناء محاولتى التملص ..

عندى نوع خاص من رُهاب الأماكن المغلقة ؛ هو أننى أشعر بالاختناق عندما أقيد .. هذه مشكلة أخرى ..

لا داعى للصراخ .. هذا مجهود ضائع .. لابد أن شريكتى فعلت من هذا الكثير ..

نعم .. نظرت إلى ركن المكان فوجدت فتاة مقيدة فى ذات الوضع تقريبًا . فتاة بريئة صغيرة الحجم واسعة العينين .. وكانت تراقبنى فى ذعر ..

(لوتشيا) ..

كما توقعت تمامًا .. صحيح أنهم لم يقتلوها ، لكنها تُعاقب بتهمة (الكلام أكثر من اللازم) كما هي العادة ..

كل شيء يسير وفقًا للسينما .. فلن أندهش لو أفرغوا طلقة رصاص في رأس كل واحد منا خلف الأذن اليمنى ، ثم تخلصوا من جثتينا ..

قال (كاربيرا) بطريقته المهذبة اللزجة :

ـ « فعلاً أنا آسف لما وصلت إليه الأمور .. أعدك بأن أطلق سراحك وأفك قيودك ، مع عبارة اعتذار رقيقة من رجل الأمن الذي ضربك ، لكن لابد أولاً من أن أشرح لك القصة .. »

قلت له :

ـ « أنا أعرف القصة .. »

ـ « أنت لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. »

وأشار إلى (لوتشيا) وقال :

ـ « هي كذلك حسبت أن بوسعها أن تمارس بعض الوشاية ، وأن تلعب دور الفتاة المنذرة في قصص (جيمس بوند) .. للأسف لا يمكن عمل هذا هنا .. إن الحكومة قد أنفقت مبالغ باهظة على هذا المكان ، واستقدمت خبير تنصت من المخابرات

المركزية الأمريكية .. باختصار يصعب أن تطير ذبابة هنا من دون أن تصورها ثلاث كاميرات على الأقل .. صدقنى ليس هذا رخيص الثمن ، لكنه فعال .. »

ثم أشار إلى الرجل الأسود الواقف جواره ، وقال :

ـ « لن أذكر أسماء ، لكنك ترى واحدًا من أهم القادة العسكريين هنا ، وهو يقابل رئيس الجمهورية يوميًا .. لهذا يمكنك أن تدرك أن الحكومة تبارك ما نفعله وتموله ، وفرصتك فى النجاة معدومة تمامًا لو حاولت أن تتحدانا .. »

هنا تذكرت ما قاله لى ذلك الطبيب المهتم بالبنسللين :

ـ « .. سوف تختفى ويبلغون سفارة بلدك بأنهم يبذلون جهدًا جبارًا للعثور عليك .. لن يحتج أحد ؛ لأن البترول أهم منك .. لهذا سيصمتون ويصير الجميع سعداء .. »

فعلاً لا أهمية لى على الإطلاق وسط هذا كله .. فأر يقف أمام جنزير دبابة .. هل يذكره أحد أو يرثيه أحد بعد ما يتحول إلى بقعة دم على الجنزير ؟!

هز (كاريبيرا) رأسه وأشعل سيجارًا ، وقال فى تهذيب :

ـ « ســـوف نطلق ســراحك وتعود للمختبر .. سوف تعود لممارسة تجاريك .. فقط أردت أن نكــون واضحيــن معــك وأن ينتهي كل هذا الزيف .. سوف تنام في حجرتك وتصــل فــى مختبرك .. كـل شىء كما هو ، فيمـا عدا الخروج .. الخروج بإذني وعندما تنتهي المهمة .. »

أى جنون هذا ؟!

من المفترض ، لو كان يعرف كل شىء ، أن يعرف كذلك أننى لا أفقه شيئًا فـى الهندسة الوراثية ولا البيولوجيا الجزيئيـة .. الياباني قال بوضوح أنه يعرف أننـى جاهل .. والياباني يستقى معلوماته من كاربيرا .. هو لم يجربنـى إلا فـى جملـة واحـدة عسير أن تفضحنى ..

هؤلاء القوم يلعبون بى ..

فكرت فى هذا بينما فيودى تحل .. بينما أنهض ..

ونظرت إلى الفتاة المقيدة .. طبعًا من الصعب أن أطلب منهم أن يفكوها إكرامًا لى ..

* * *

9ـ الثـــلاجـة ..

جلست فى المختبـر مع الطبيـب اليـابانى أرمق الشاشـة التـى ارتسمت عليها صـورة لخليـة فى حالـة سيئة .. هنـاك شاشـات أخرى أرى عليها محقنًا يمتـد إلـى جدار خليـة .. يسحب النـواة منهـا .. ثم يغمد المحقن فى جدار خليـة أخـرى .. أرى النـواة تنزلق إلى الداخل ..

قلت له وأنا أشير إلى الشاشة :

ـ « على قدر علمى ، هذه خلية تتحلل .. »

قال وهو يعالج بعض المحولات ليزيد من وضوح الصورة :

ـ « نعم .. الكالسيوم يدخل وتفقد الخلية خواصها .. هل تـرى هذه الخطوط الشبيهة بدرجات سلم ؟.. إنهـا صبغيـات الخليـة .. تتفكك بهذا الشكل ، ثم تتكمش النواة .. »

قلت محاولاً تذكر ما درسته من قبل :

ـ « أنت تتحدث عن الـ apoptosis .. موت الخلايا المبرمج .. ما الجديد هنا ؟ »

حك شعره الناعم ، وبرزت أسنانه أكثر ، وقال :

ـ « لماذا ؟.. لماذا تقرر الخلايا أن تموت فى لحظة بعينها ؟.. هذه هى المشكلة التى تواجهنا .. الموت الذى يحدث فى لحظة بعينها .. »

تذكرت مشهد موت (فريدمان) عندما تحلل أمام عينى .. لابد أن هذا هو الأمر ..

قال لى وهو يضع عينة أخرى :

ـ « عليك بالثلاجة فى الغرفة المجاورة .. ارجو أن تحضر لى الأنبوب رقم b78 - 9 .. سوف أفتح دائرة الإنذار .. »

وضغط على زر أحمر فصار لونه أخضر ..

واضح أننى كنت سأموت بصدمة كهربية لو جربت أن أفتح الثلاجة من دون فتح الدائرة .. أو بلغة السينما المصرية (فش الهوامش) ..

نهضت وأنا مغتاظ ..

إذن هو بحاجة إلى مساعد مختبر وليس إلى طبيب .. لهذا أطلقوا سراحى ..

اتجهت إلى الغرفة المجاورة .. فتحت بابًا غليظًا له مقبض ثقيل كأبواب الخزائن .. بالداخل كان البرد قارسًا يتراكم على شعر ساعدك وحاجبيك في صورة قطن أبيض .. الحقيقة أن بخار الهواء نفسه يتجمد .. الإضاءة زرقاء مقبضة .. أعتقد أنها نوع من الأشعة فوق البنفسجية ..

هناك أنابيب لاختبار معدنية متراصة جنبًا إلى جنب .. هناك أرقام ..

بالفعل وجدت الأنبوب رقم b78 - 9 .. كان أقرب إلى علبة السيجار ، فعالجت القفل العلوى وأخرجت من الأنبوب المعدنى أنبوبًا أصغر من زجاج ..

فى الداخل محلول رائق .. هناك نسيج فى قاع الأنبوب ..

هناك ملصق صغير على الأنبوب كُتِب عليه (فرويد) ..

ما معنى هذا ؟

مددت يدى إلى أنبوب آخر .. أخرجت منه أنبوبًا زجاجيًا كتب عليه (روبرت كوخ) !..

لا أعرف معنى هذا .. لكن من الممكن أن أعرفه فيما بعد .. هكذا دسست أنبوب (كوخ) الزجاجى فى جيبى .. على الأرجح

لا توجد كاميرا في هذه الثلاجة ، وعلى الأرجح هم لا يفتشون الجيوب من حين لآخر .. سوف أعرف سر هذا النسيج يومًا ما خارج هذه الجزيرة ..

أغلقت الثلاجة وعدت لليابانى بالعينة ، فقام أولاً بغلق الدائرة (تفييش الهوامش) ثم أخرج الأنبوب الزجاجى ..

قلت له متظاهرًا بأننى أقرأ الاسم أول مرة :

ـ « لماذا كتبتم (فرويد) على هذا الأنبوب ؟ »

هنا جاء صوت (كاربيرا) من الخلف يقول :

ـ « نعم .. قلت أنه من حقك أن تفهم يا د. (مرعى) .. »

* * *

قال د. (كاربيرا) ونحن نجلس حول أقداح القهوة التى يتصاعد منها بخار كثيف ، يمتزج بدخان سيجاره :

ـ « قبل ان يتكلم العالم عن الاستنساخ بأعوام ، كنت أنا أمارس أبحاثى سرًا .. وعرفت الإمكانيات المروعة لكشف كهذا .. الاستنساخ ـ كما تعرف ـ هو عملية تكوين كائن حى باستخدام خلايا غير جينية من خلايا الجسم ، أى من دون حيوان منوى ولا بويضة .. وهذا الكائن المتكون يكون مطابقًا من حيث الجينات للحيوان الذى

أخذت منه الخلية الجسمية .. تخيل أن أدير مستشفى يعمل فيه أعظم أطباء التاريخ ، الذين قمت باستنساخ أنسجتهم .. أنت تحتفظ بأهم عقول في التاريخ .. تحتفظ بها للأبد .. إن (رونتجن) مكتشف أشعة إكس لا يعرف حرفًا عن الأشعة المقطعية أو أشعة الرنين المغناطيسي ، لكن لا شك في أنه سيتعلم ما هو أكثر ، ولسوف يتفوق على العلماء الآخرين .. عندما تخترع أنت شيئًا ويطوره الناس ، ثم تعود أنت لتراه ، فإنك تتعلمه أسرع من سواك وتكون الأفضل .. باستير عندما يعمل في مجال الفيروسات سيكون أفضل بالتأكيد من أي عالم يعمل في معهده اليوم .. فقط يحتاج إلى بعض الوقت كي يفهم التقنيات الجديدة التي استجدت .. لقد حلمت بهذا ورحت أعمل عليه أعوامًا لا حصر لها .. »

بدا على وجهي أنني أملك آلاف الاعتراضات ، لكنه قاطعني رافعًا كفه في حزم ، وقال :

ـ « لابد من أن أعرض قضيتي كاملة ثم أسمع رأيك .. لن أناقش الأمر نقطة نقطة .. أنا من أصل عربي قديم جدًا كما تعرف ؛ ولهذا أعرف ولعكم بمقاطعة الفكرة قبل أن تكتمل .. لابد من وقفات .. لابد من اعتراضات شكلية ، وفي النهاية لا تتذكر حرفًا مما كنت تريد قوله .. »

لذت بالصمت معترفًا لنفسي بأنه قد يكون وغدًا ، لكن كلامه معقول ..

قال مواصلاً الكلام :

ـ « كنت أحلم بأن يكون هذا كله في مستشفى واحد !.. ملكي !.. كان حلمًا وقد تحقق !.. لكنه موشك على الانهيار ! »

هنا لم أستطع أن أكتم آرائي أكثر ، فانفجرت قائلاً :

ـ « لابد من حمض نووي .. لابد من DNA .. من أين لك بحمض (فرويد) أو (هارفي) النووي ؟!.. من أين لك بحمض ابن النفيس ؟! »

ضحك في سماجة ، وقال :

ـ « الاستنساخ لعبة صعبة . لكن الأصعب منها أن تجد الأنسجة .. وهذا هو الجزء الأعقد مما قمت به !.. مثلاً (سبالانزاني) الإيطالي رائد علم وظائف الأعضاء ، كان قد ترك ميراثًا غريبًا ؛ هو مثانته .. كانت قد عذبته في التبول طويلاً ؛ لهذا أوصى بتركها محفوظة للأجيال القادمة كي يعرفوا ما كان فيها .. هذه المثانة موجودة اليوم في ميلانو في متحف كلية الطب ، وكل ما عليك هو أن تلجأ إلى الرشوة والعمل السري من أجل الحصول على قطعة صغيرة

ربما بحجم رأس دبوس منها .. هكذا صرت تملك الحمض النووى لسبالانزانى .. فرويد أصيب بسرطان اللسان وسقف الفم .. العينة ما زالت موجودة .. الأمر صعب فعلاً لكنه ممكن .. يمكنك أن تجد المقابر التى دفن فيها (كوخ) ، وتحصل على بعض العظام تثبت عمرها بطرق إشعاعية كى تثبت أن عمرها يقترب من عمر العالم .. هذه عملية تستغرق عدة أعوام ، لكنك فى النهاية تملك أنسجة من معظم الأطباء المشاهير .. للأسف لم أجد أية عينة من طبيبيكم العظيمين (ابن سينا) و(الزهراوى) .. مع أن الأخير كان عندنا فيما أطلقتم عليه الأندلس .. »

ثم تثاءب وقال :

- « بعد هذا نبدأ عملية الاستنساخ .. تدمج الحمض النووى ضمن كروموسومات ، وتحقنها فى خلية مفرغة ، ثم تدمجها ببويضة انتزعت نواتها .. تمرر شحنات كهربية فيتكون الجنين الذى يتطابق 100٪ تقريبًا مع الكائن الذى أخذنا منه الحمض النووى ، ونزرعه فى رحم بديل لأم أفريقية تقبل هذا الدور .. كل شىء يؤكد أننا لو وضعنا الوليد فى بيئة تشبه بيئة العالم فلسوف نحصل على عالم آخر .. هذه حبكة رواية شهيرة اسمها (الأولاد من البرازيل) للكاتب إيرا ليفين ، حيث يحاول العلماء أن يأتوا بهتلر جديد لعالمنا .. »

رفعت حاجبى معترضًا ، فقال :

ـ « أعرف ما تريد قوله .. بعض هؤلاء العلماء تقترب سنه من الستين ، وهذا يعنى أن التجربة كان يجب أن تبدأ منذ ستين عامًا .. أقول لك : إن لعبة الجينات التى أمارسها تسرع من عمر الكائن الوليد .. نحن نجعله يمر بالعام الواحد كأنه 12 عامًا ونصف .. هكذا يصيرون مراهقين بعد عام ، ثم يصيرون شبابًا بعد عام آخر .. مع تعليم مكثف .. كل هذا مع تمويل سخى من حكومة (غينيا الاستوائية) .. وفى النهاية أنت رأيت النتيجة .. إن رونتجن هو رئيس قسم الأشعة .. المختبر يعمل فيه باستير وكوخ .. المشرحة يشرف عليها فيساليوس .. ابن النفيس وهارفى عالما أمراض .. لدىّ فلمنج ولدىّ جنر .. ولدىّ أوسلر للأمراض الباطنة ، وهالستيد للجراحة العامة .. كان لدىّ فرويد وشاركو يشرفان على قسم الأمراض العصبية والنفسية .. لكنهما تحللا للأسف .. كريستيان برنار Christiaan Barnard شخصيًا يشرف على جراحات القلب مع نورمان شمواى Norman Shumway(*) .. الجميل فى الأمر أن هناك أطباء أحياء فى بلاد بعيدة لا يعرفون أنهم يمارسون الجراحة فى مستشفى فى (غينيا الاستوائية) !.. هذا ليس مستحيلاً .. لا تنس أن هناك نسخًا بشرية بيننا اليوم !.. التوائم ! »

(*) لم يكن شمواى جراح القلب العظيم قد توفى وقت سرد هذه القصة .

قلت له فى حيرة :

- « ربما كان هذا مغريًا .. لكن ما جدواه ؟.. بعبارة أدق : ماذا تجنى حكومة (غينيا الاستوائية) من هذه الأبحاث الباهظة ؟ »

ابتسم وقال :

- « كل دكتاتور يحلم بالخلود .. (تيودورو أوبيانج مباسوجو) حاكم البلاد لا يريد أن يترك شعبه بعد رحيله ؛ لذا يريد أن يستنسخ نسخة أخرى منه تحكم بعد وفاته .. تحكم للأبد .. يبدو هذا غريبًا ، لكنه عرف بأبحاثى وعرف أننى أمله الوحيد .. من ثم هيأ لى أن أدير هذا المستشفى وأن أكون سيد الجينات !.. نحن نتحرك بنجاح تام .. وعما قريب سيكون لدينا (أوبيانج) صغير نعلمه كل شىء ، لكن مشكلة تحلل الخلايا اللعينة هذه بدأت تضايقنى .. فجأة بدأت نماذجى تتحلل .. أنت رأيت كيف ذاب فرويد أمام عينيك بلا إنذار .. »

قلت له :

- « أنا أعرف أن استنساخ البشر خطر دومًا .. الحيوانات المستنسخة تعانى ضعف جهاز المناعة وسرعة الإصابة بالأورام .. بعضها جن أو مات فجأة .. النعجة (دولى) الشهيرة قتلوها عام 2003 بعد إصابتها بسرطان الرئة والتهاب شديد بالمفاصل .. »

قال على الفور :

ـ « لقد تجاوزنا هذه المرحلة منذ زمن .. ما نحن فيه مشكلة جديدة تمامًا وهى ما يضايقنى .. أنا لا أتوقع منك أن تعرف ، لكنك ما دمت جئت هنا فستبقى معنا أطول فترة ممكنة ، ولما كنت لا أنوى تقييدك بالأصفاد فى القبو ، فإننى أتوقع أن تعمل مع اليابانى لتستحق طعامك ! »

* * *

10ـ الغـرفـــة ..

نعم يا د. (بارتلييه) .. أعرف أن هذا الكلام لن يصلك ، لكنى أقضى الوقت متخيلاً التقرير الذى سـأكتبه لك يومًا مـا ، والذى يصف الحال هنا ..

إذن كل هذا البحث العلمى له هدف واحد ؛ هـو أن يوجـد (أوبيانج) للأبد !.. هذا المستشفى يضم فرويد ورونتجن وكـوخ ، لكن الغرض من وجودهم ليس تحسين الخدمة للمرضى قدر مـا هو عمل بروفات بانتظار الهدف الأعظم : أن يوجد (أوبيـانج) جديد !

لن يقبل الطاغية أن يعرف أن التجربة مـا زالت تتعثر .. لـن يقبل أنصاف الحلول ، وبالتأكيد سوف يجن لو رأى نسخته تتحلل وتذوب .. ربما قتل (كاريبيرا) ..

المشكلة الأخطر هى أننى لست سجينًا فى المستشفى فقط ، بل أنا سجين فى (غينيا الاستوائية) كلها إذن . ما دام هذا كله يتم بمعرفة الحكومـة .. سورى ليس سـور المستشفى ، بـل سـور البلاد كلها ..

إذن أنا هنا كى أساعد اليابانى على إيجاد حل لمشكلة تدهور الخلايا .. اليابانى طبيعى وليس مستنسخًا ، وهو مذعور كاره بشدة لعمله .. لكنه مرغم ..

يقول لى وهو يفحص بعض العينات :

ـ « هل ترى هذا الجسم الصبغى الغريب ؟ »

نظرت إلى الشاشة وأقسمت له إننى لا أرى شيئًا ..

هكذا يقوم بالعمل الذى صار طبيعة لديه .. يتناول ورقة ويخط عليها كلمات وهو يتكلم كلامًا علميًا لا علاقة له بما يكتبه ..

نظرت إلى الورقة فوجدت أنه كتب :

ـ « التريبتوفان .. لابد من تريبتوفان فى طعامهم .. حاول منع ذلك .. جرب المطبخ .. »

نظرت إليه للحظات غير فاهم .. التريبتوفان حمض أمينى جوهرى .. أى إنه لا يمكن الاستغناء عنه للجسم ، ولكن ما معنى ذلك ؟

ثم بدأت أفهم ..

تناولت الورقة وخططت عليها كلمات ، وأنا أقول بصوت عال :

ـ « هل تقصد هذه المجموعة من الصبغيات خارج النواة ؟.. سأرسمها لك كى تفهم ما أراه .. »

وخططت على الورق سؤالى :

ـ « هل هو سبب تحللهم ؟ »

تناول منى الورقة وكتب كلمة واحدة :

ـ « نعم .. »

ثم مزق الورقة ..

فهمت .. طبعًا لابد من خلل كيميائى حيوى فى تلك النسخ التى عانت الكثير وشاخت قبل الأوان. هذا الخلل هو أنهم غير قادرين على الاستفادة بالتربتوفان الموجود فى الطعام ؛ لهذا يقدمون لهم التربتوفان بشكل منتظم .. أعتقد أنه حرم بعض النماذج من هذا الحمض الأمينى ؛ فكانت النتيجة هى تحلل الكائن ..

إذن الأمر لا يتعلق بموت الخلايا المبرمج ، بل يتعلق بعنصر جوهرى حرمت منه هذه الكائنات ..

يمكننى أن أعرف ذلك ..

* * *

السؤال المهم هنا هو : أين تتم عملية الاستنساخ ذاتها ؟

كل ما رأيته حتى اللحظة هو الياباني يجرى تجاربه ، لكن لابد من فريق عمل يعمل فى مختبر شديد التعقيد .. فأين هو ؟

أين يمكن أن يضعوا التريبتوفان ؟.. هؤلاء الأطباء يأكلون فى الكافتيريا مثل الجميع ، فلا يمكن أن يوجد التريبتوفان إلا فى المطبخ ..

كنت بحاجة إلى أن أكون وحدى وألا أرغم على الجلوس فى هذا المختبر اللعين .. يجب أن أنفرد بنفسى وأفكر وأجول كما أريد ..

هكذا رحت أفكر فى طريقة مناسبة ..

الهستيريا مناسبة جدًا وتقنع الجميع .. فليكن ..

أطلقت صرخة مريعة جعلت اليابانى يثب مترًا في الهواء ، وأمسكت بفم معدتى ورحت أعوى كالوحوش ..

ـ « ماذا دهاك ؟ »

ـ « لا أعرف .. كأن ألف سكين تمـ ... آى !.. افعل شيئًا ! »

وسقطت من فوق مقعدى ورحت أضرب الأرض بقبضتى .. الحقيقة أننى اندمجت حتى صارت معدتى تؤلمنى فعلاً .. مشكلة الهستيريين أو المتمارضين تكون جهلهم الطبى ، وهذا يجعلهم يرتكبون أخطاء فادحة .. مثلاً هناك الأخت التى تصر على أنها فقدت الإحساس فى جانب جسدها الأيمن .. وجانب الرأس الأيمن كذلك يا آنسة (مها) ؟.. نعم .. هى لا تعرف طبعًا أن الأعصاب تتصالب ، وأن الجانب الأيمن من الجسد ينتمى شعوريًا إلى الجانب الأيسر من الرأس ، والعكس .. هكذا يعرف الطبيب على الفور أنها هستيرية ..

لكن الطبيب عندما يقرر أن يتمارض يكون مقنعًا طبعًا ..

هكذا سمعت أصواتًا عدة ، ثم ظهر رجل أمن ، تلاه كاريرا شخصيًا مبرهنًا على أنه يسمع (دبة النملة) فعلاً .. سألنى وهو واقف قرب جثتى :

ـ « ماذا دهاك ؟ »

ـ « معدتى .. أى ! »

وضربت الأرض متوسلاً لهم كى يريحونى بأى شكل .. قال لرجل الأمن :

- « استدع (ليمان) حالاً ! »

لقد كفوا عن استخدام أسماء مستعارة ، وصاروا يسمون الأشخاص بأسمائهم .. (ليمان) هو طبيب أمريكى عبقرى .. ربما هو أعظم أطباء الأطفال فى التاريخ ، لكنه كذلك كان يعالج الكبار جيدًا فى مستشفى (جبل سيناء) فى نيويورك .. وله نظرة ثاقبة مخيفة .. يجب أن أجيد دورى ..

ظهر الرجل من مكان ما ، وكنت أذكر شكله من مراجع الأمراض الباطنية .. إنه قريب الملامح من ممثلنا العبقرى (محمود مرسى) .. فى الخمسين من عمره ، ضئيل الجسم ، يلبس معطفًا عتيق الطراز .. له لحية خفيفة ، غير كثة كالباقين هنا ..

انحنى علىّ وراح يتفحص بطنى .. طبعًا كنت أنظر إليه فى رعب شأن المصابين بالتهاب بريتونى ، وقد كففت عن التنفس لأقلل من آلام البريتون .. ووصفت بدقة ذلك الألم الذى يخترق ظهرى بين لوحى الكتف ..

راح ينظر فى وجهى بعينين خارقتين للرصاص ، ثم قال وهو يعد النبض :

- « ليس تكيسًا فى الأورطى .. كذلك من الصعب أن تكون قرحة مثقوبة دون أن يحدث أى تغير فى النبض .. ربما كان هذا التهاب بنكرياس .. »

قال (كاربيرا) فى نفاد صبر :

- « أنت مصر على الطريقة العتيقة فى التشخيص .. سوف نجرى له فحصًا بمنظار المعدة ، مع أشعة تلفزيونية على البطن كلها ، وربما نسبة إنزيم الأميليز .. »

بالفعل نسيت أن (ليمان) لم يكن من هذا الجيل ، وهو لا يثق فى الاختراعات الحديثة (الرقيعة) مثل الموجات فوق الصوتية .. لكن .. منظار ؟.. لا أريد !.. لن أبتلع هذا الخرطوم الأسود الغليظ ولو دفعوا إلىّ مال قارون ..

قال (ليمان) وهو ينظر إلىّ فى شك :

- « لا أرى داعيًا لهذا كله .. ربما يكون متمارضًا ؛ لهذا أرى فقط أن نبقيه تحت الملاحظة .. »

هكذا حملونى إلى غرفة نومى ودسونى فى الفراش دسًا ..

صرت وحدى فى الظلام ..

لم أتحـرك .. ظللت حيـث أنـا أنظـر إلى السـقف وأدعو الله ألا يغلبني نوم المثل أو نوم راحة الأعصاب بعد هذا كله ..

لا أذكر كم مر من الوقت وأنا في هذا الوضع ، حتى انفتح الباب ببطء ودخل شبح ..

دنا مني فأدركت أنه ذلك الأخ (ليمان) .. بالمعطف الأبيض على رأسه قلنسوة صغيرة يداري بها صلعته ، وقد دنا من فراشي ومد يده يمسك بمعصمي ليتحسس نبضي ، وفي الآن ذاته وضع يده على معدتي .. كان يريد التأكد من أن علامات المرض قد زالت أثناء نومي ، وهو شأن الهستيريين والمتمارضين ، بينما من يتألمون ألمًا عضويًا فعلاً يحتفظون به وهم نائمون .. لو ناموا ..

تظاهرت بأنني استيقظت من النوم ، وقلت في إرهاق :

ـ « بيني وبينك .. أنت طبيب عبقري فعلاً .. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأنك خمنت أنني متمارض ! »

وهويت على مؤخرة عنقه بكلوة يدي .. ولم أنتظر لمعرفة ما إن كانت الضربة كافية لأني هويت بضربة أخرى فسقط على الفراش فوقي ..

نزعت عنه القلنسوة والمعطف .. إن معطفه غريب الشكل ، فلا يكفي أن أستعمل معطفي أنا ..

دسسته في الفراش .. وبالطبع لم أجد شيئًا أقيده به ..

سوف يذكر التاريخ أنني ضربت الطبيب العظيم (ليمان) .. لكن هذه مزية العلماء .. إنهم ضعفاء هشون فعلاً .. لا يشكلون صعوبة في التخلص منهم ..

لتأمل أن الظلام الذي يغمر الغرفة جعل رؤية ما يحدث صعبة على من يراقبني ..

بسرعة جمعت حاجياتي المهمة ودسستها في جيوبي .. النقود .. جواز السفر .. العينة التي سرقتها ..

هكذا غادرت الغرفة ..

لن أخدع أحدًا طبعًا .. لكن قد أخدع كاميرات المراقبة المنتشرة في كل مكان .. سوف يرون من أعلى رجلاً له لحية خفيفة وقلنسوة ، ويلبس معطفًا غريب الشكل .. على الأرجح سيفترضون أنني (ليمان) ..

هذه آخر حركة عندي ، فلن يطول الأمر قبل أن أجد الرجل أمامي وحوله رجال الأمن ، وهو يشير نحوي متهمًا :

ـ « هذا الخنزير ضربنى ! »

من المستحيل أن أطلب منه أن يكتم ما حدث أو يصمت ..

لقد بدأت رحلتى .. لكن تذكرة العودة ليست معى ..

* * *

11ـ المطابخ والقبــو..

كما توقعت ، كانت المطابخ فى نهاية الممر الذى توجد فيه الكافتيريا ..

لم أقابل أحدًا على الإطلاق ، سوى هذه الممرضة أو تلك ، وكلهن أسبانيات مهذبات يقلن شيئًا مـا دون أن ينظـرن إلـىّ بإمعان .. فأهز رأسى محييًا ..

فتحت باب المطبخ ودخلت .. لم يكن هناك أحد على الإطلاق ..

رهانى هو أن التربتوفان موجود فى المطبخ ، وأن كمية منه توضع فى الطعام لكل العاملين فى الوحدة يوميًا . لا تستقيم الحياة مع توزيع جرعة يومية يأخذها كل شخص على مسئوليته ، بل هو يوضع فى الطعام وضعًا .. لو قمت بتبديل الموجود منه فإننى أدمر طاقم المستشفى تدميرًا ..

إنه مكان فسيح ، لكنى أعرف أن علىّ أن أبحث فى الثلاجات .. هكذا اتجهت إلى الثلاجات الرأسية العديدة فى ركن المكان ، وبسرعة رحت أتفحص الموجود ..

ثلاجة .. ثلاجة .. ثلاجة ..

آه !.. هنا بالذات توجد مجموعة من العلب .. علب تشبه علب لبن الأطفال ، لكن لست واثقًا من محتوياتها .. لو كانت هذه تحوى التريتوفان فسوف أضع بدلاً منه حليب أطفال أو أى مسحوق يشبهه ، ولسوف يبدأ الأثر سريعًا ..

لكن كيف أعرف ؟

أخرجت علبة ورحت أتفحصها بدقة ..

هل يراقبنى أحد ؟.. من الصعب أن أعرف .. لكن من المخبول الذى يضع كاميرات مراقبة فى المطبخ ؟!

للأسف لا أستطيع معرفة كنه هذه العلب ؛ فالكتابة عليها بحروف غريبة لا تمت للاتينية .. ربما الروسية أو اليونانية .. لا .. ليست العبرية بالتأكيد ..

أغلقت الثلاجة ووقفت أفكر .. ما الذى أجنيه من تدمير طاقم أطباء هذه المستشفى ؟.. آمل فى أن أحدث حالة ارتباك .. فماذا لو لم تحدث ؟.. من الخسارة تدمير هذه العينات المنتقاة .. نعم عينات .. فأنا عاجز عن النظر إلى هؤلاء القوم كبشر ..

* * *

هنا وقعت عيني على هذا المصعد الصغير بين ثلاجتين. مصعد بائس تعس يبدو أنه يستخدم لنقل المأكولات إلى المطبخ .. بالطبع يقود إلى القبو ..

لِمَ لا أجرب ؟.. إن حظي اليوم حسن .. فلماذا لا أجربه أكثر ؟

هكذا دلفت إلى المصعد وضغطت على زر B الذي يقود إلى القبو طبعًا ..

انغلق الباب فغرقت في ظلام دامس .. تبًا !.. لو انحشر المصعد بين طابقين لصرت في مأزق مخيف .. لا أجد جرس الإنذار ، وليس معي جهاز محمول .. أنا تحت رحمة من يقرر استعمال هذا المصعد ..

قبل أن أتوتر أكثر سمعت صوت (دنج) .. وانفتح الباب ..

خرجت في حذر فوجدت أنني في قبو فقير الإضاءة كما توقعت ..

قبو واسع لكني أعرفه .. هناك ممر إلى اليمين .. في ركن المكان المضاء إضاءة رديئة ، هناك مقعدان .. المقعد الأول كنت مقيدًا إليه ، والمقعد الثاني تجلس عليه الممرضة (لوتشيا) مذعورة كعهدي بها ..

لم تكن مكممة ، لكن يبدو أنها استنفدت بضاعتها من الصراخ ، فآثرت الصمت ..

فقط نظرت إليّ في رعب وهمست :

ـ « دكتور ! »

لا توجد حراسة من أي نوع .. هكذا ركضت نحوها .. بحثت عن سلسلة مفاتيحي التي توجد فيها مطواة صغيرة ضمن أدوات تقليم الأظفار ، ورحت أعالج قيودها .. لقد انقطعت بسهولة تامة ..

نهضت وهي تحاول أن تستعيد الدم في عروقها ، وراحت تركل الأرض مرارًا كأنها غاضبة ..

قلت لها وأنا أنظر حولي :

ـ « بصراحة لا أعرف قيمة هذا الإجراء .. نحن سجينان في المستشفى وسجينان في (غينيا الاستوائية) ذاتها .. فقط أعدت الدورة الدموية لأطرافك ، لكن ليس الحرية .. »

قالت وهي تمسك بيدي :

- « لا تنس أنهم وضعونى هنا لأننى أعرف الكثير .. سوف نهرب .. صدقنى .. »

نعم .. نسيت هذا .. هى من الداخل .. تعرف الكثير ..

باختصار سوف تكون منقذى الوحيد فى هذا البلد ، دعك من أنها تتكلم الأسبانية ، وكل الناس هنا لا يتكلمون إلا الأسبانية .. ذلك يعنى أننى لو فررت من المستشفى فلن أستطيع أن أشرح ما أريد لأى شخص ..

هذا بالطبع ما لم أتعلم لغة (الفاتح) بسرعة ..

قالت لى وهى تلهث انفعالاً :

- « سيارة الأطعمة تصل مرتين فى اليوم .. سوف ينفتح باب القبو ويدخل بعض العمال ليدفعوا عربات تحمل المأكولات إلى المصعد .. سيكون هذا هو الوقت المناسب كى نخرج من مخبئنا ونتسلل إلى داخل السيارة ، وهى تغادر المستشفى بعد ذلك .. »

- « يا سلام !.. ألن يكتشف هؤلاء العمال أنك لست موجودة ؟ »

ـ « لا تنس أننى كنت مقيدة فى ممر جانبى .. لا يلقون نظرات عليه أبدًا .. »

ـ « ولو خرجنا ؟.. ما قيمة هذا ؟ »

قالت وهى تضحك فى عذوبة :

ـ « سوف نلجأ إلى القنصلية الأسبانية فى (بيوكو) .. هى قريبة جدًا من هنا .. »

بدت لى الخطة مهلهلة تعتمد على الحظ إلى حد كبير ، وهى طفلة ساذجة لا يمكن أن تثق بها فى مهمة أعقد من العناية ببعض القطط الصغيرة ، لكن ماذا بوسعى أن أفعل ؟

أرى الكثير من التفاصيل ..

(ليمان) يفيق ويملأ الدنيا صراخًا .. عندها تتفتح أبواب الجحيم ، ويخرج المستنطقون بحثًا عنى ، حاملين المشاعل والكلاب الجائعة .. اقتلوا المنبوذ !.. احرقوه !.. فلنطعمه للصراصير . بينما (كاريبرا) يتقدمهم بعباءة سوداء مبطنة بالأحمر ، وقد استطالت أنيابه ومخالبه ، والدم يتساقط من ركنى فمه ..

لو لم يفكروا فى القبو أولاً فهم حمقى ..

كانت قد تكورت على الأرض بانتظار لحظة الخلاص ، فى ذلك الوضع الذى يجيده لاعبو كرة القدم الذين يستمعون لتعليمات المدرب ..

جلست جوارها فى الوضع ذاته ، وسألتها :

ـ « ما دمت تعرفين هذا كله ، فلماذا لم تهربى ؟ »

ـ « كنت خائفة .. هذا كل شىء .. »

ـ « فهمت .. واليوم جربتِ لسوأ شىء ممكن ؛ فلم تعودى تخافين .. »

وخطر لى أن هذه فلسفة ممتازة يجب أن يتذكرها الطغاة والأوغاد عامة .. يجب أن تُبقِىَ لضحاياك شيئًا يخافون أن يفقدوه .. لا تكن غبيًا وتأخذ منهم كل شىء .. عندما يقيدون سجينًا ويجردونه من ثيابه ويصعقونه بالكهرباء ، فإنهم بهذا يكسبون خصمًا عنيدًا شرسًا .. لقد صارت حياته كلها تنقسم إلى ما قبل الكهرباء وما بعدها .. ما قبل الكهرباء كانت حياته كلها خوفًا من الكهرباء .. بعدها لم يعد يخاف شيئًا ..

(لوتشيا) ظلت مقيدة إلى مقعد فـى قبو مظلـم فترة طويلـة ، وهكذا انتهت تلك الفتاة المذعورة الخائفة من ظلها .. لقد صارت مستعدة للتمادى ..

* * *

12ـ الجـزيــرة ..

لا أعرف كم مر من الوقت ..

لابد أن ضربتى لـ (ليمان) كـانت قويـة جدًا ؛ لأن أمـرى لـم يفتضح بعد ..

ثم سمعنا صوت من يتكلم بالأسبانية بصوت عـال .. هذه لغة لا تصلـح للهمس كمـا يبدو .. هنــاك مــن يدفــع عربــات علــى الأرضية الخرسانية ..

نظرت إلىّ (لوتشـيا) واتسـعت عيناهـا رعبًا كعادتهـا .. لكن معنى النظرة هذه المرة هو (حان الوقت) ...

هكذا نهضنا فى حذر ..

وخلف الجدار رأيت نور الشمس يدخل القبـو .. هنــاك شـاحنة تقف وقد انفتح صندوقها ناحية البـاب .. ورأيت المصعد ينغلق صاعدًا ..

لا يوجد أحد .. إما الآن وإما لا ..

هكذا جذبتها من يدها وهرعنا خارج القبو إلى الهواء الطلق .. بالفعل لم يكن هناك أحد في الخارج على الإطلاق .. فقط الشاحنة التي تهدر محركاتها وقد خلا صندوقها تقريبًا ..

وثبت إلى الداخل فوق لوح خشب وضعوه لتسهيل الصعود ، ومددت يدي أساعدها ..

كانت هناك مجموعة من صناديق المياه الغازية ، فتواريت وراء واحد وجعلتها تتوارى وراء آخر ..

من جديد تردد الكلام بالأسبانية ، فحبسنا أنفاسنا .. سمعنا من يتكلم بسرعة كمدفع رشاش ، ثم انغلق صندوق الشاحنة بقوة .. وساد الظلام ..

بدأ المحرك يهدر ، وعرفت أننا نتحرك ..

أعتقد أننا نبتعد ..

أعتقد أننا غادرنا المستشفى فعلاً وصرنا في شوارع المدينة القذرة ..

بعد نصف ساعة شعرت بأننا نتوقف ..

هناك من يتكلم بالأسبانية فى الخارج .. هناك من يفتح باب الشاحنة ..

أشرت لها أن الوقت قد حان .. هرعنا مندفعين خارج الصندوق ، وكان هناك رجل أسود واقف يثرثر مع صديق له وظهره لنا .. يبدو أن هذا المكان مخزن الشركة التى تورد المواد الغذائية ..

اندفعت بقوة فأسقطت الرجل أرضًا ، ورحنا نركض كالمجانين فى الشوارع القذرة .. بينما عيون الأطفال الجياع ترمقنا فى دهشة ..

لاهثة توقفت (لوتشيا) ، وسألت بعض المارة عن شىء ، فأشاروا لها إلى اتجاه معين ..

الحق أنها مفيدة جدًا .. ما كان بوسعى أن أتحرك أكثر من مترين من دونها ..

ما كانت هناك حاجة للبحث أكثر ، أو لركوب وسيلة مواصلات (معظمها ميكروباص هنا) ؛ لأننا بعد ما ركضنا

شارعين وجدنا نفسينا أمام فيلا من طابق واحد ، يرفرف فوقها العلم الأسباني ..

إنها القنصلية ..

* * *

13ـ سافاري ..

عدت إلى وطنى الثانى بعد ثلاثة أيام ..

لقد قامت القنصلية الأسبانية بترحيلنا باعتبارنا لاجئين ، وهكذا وجدت نفسى فى (أنجاواتديرى) أخيرًا ، أحمل أغرب قصة فى حياتى ..

لكنى لم أقابل (بارتلبيه) كى أقدم تقريرى ..

أولاً اتجهت إلى (جيديون) وطلبت رأيه فى عدة أشياء ، وأعطيته عينة كى يحللها لى ..

رد علىّ عند المساء ، وهكذا اتجهت فى ثقة إلى مكتب بارتلبيه وطلبت مقابلته ..

رآنى فهلل مرحبًا .. ونهض من خلف مكتبه كأنه ديناصور يفيق من سباته ، وهتف :

ـ « علاء ! .. لم ينته الأسبوع بعد .. »

ـ « قررت يا سيدى .. لا يمكن للمرء أن يجمع بين القرار ودقة المواعيد ! .. إن (كاريبرا) شيطان حقيقى ، وقد نجوت بمعجزة ما من أنيابه.. »

جلس جواري على الأريكة التي راحت تئن ، ثم عاد يسألني :

ـ « هل تبينت كل شيء ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وهل المركز الرئيس على حق في قلقهم بصدد ما يدور هناك ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

نظر إليّ في عيني ، والتمعت عيناه الزرقاوان وسط وجهه الشحيم ، وسألني :

ـ « ما الذي يدور هناك ؟ »

قلت في هدوء :

ـ « لا شيء على الإطلاق يا سيدي .. »

* * *

نعم .. لا شيء على الإطلاق يا سيدي ..

كنت قد شككت في الأمر في البداية ؛ لأن الرجل ناجح أكثر من اللازم .. ناجح بشكل مريب .. كل هذا التقدم في عملية الاستنساخ قام به رجل واحد ، وفي غضون أعوام معدودات ..

ليس كونه نجح في الاستنساخ فحسب ، بل كونه جعل النماذج تشيخ بهذه السرعة .. تشيخ وبرغم هذا يقف عاجزًا أمام موت الخلايا المبرمج ..

ثم موضوع العينات هذا .. هو حاول أن يقتنعني بأن هذا ممكن ، لكن من الصعب فعلاً أن تتصور الحصول على نسيج من (باستير) مثلاً .. وماذا عن نسيج من (ابن النفيس) ؟!.. مستحيل ..

كل هذا قد يمكن ابتلاعه بكثير من الصودا ، لكن ماذا عن فراري ؟

لقد اعتدت على أنني نحس ، وأن الأمور لا تسير معي بالسهولة التي تسير بها مع سواي ..

لكن فراري كان موفقًا بطريقة لا يمكن وصفها . وضعت ليمان في فراشي بسهولة تامة .. مشيت في الممرات فلم يضايقني أحد .. دخلت المصعد فلم ألق أحدًا .. المصعد يقود بالصدفة إلى القبو حيث الفتاة .. الفتاة لديها حل عبقري للفرار ، ولم تجربه من قبل ..

ثم عربة المأكولات .. يتم إفراغ عربة كاملة دون أن نقابل أى واحد من طاقمها ولا سائقها .. نتسلل لها بسهولة تامة .. نثب منها فلا يعترض طريقنا أحد ..

كل هذا يشبه الأحلام .. لو أن هؤلاء اجتمعوا لتسهيل مهمتى فى الهرب ، لَمَا فعلوا أفضل من هذا ..

الواقع أن هذا صحيح .. هم فعلاً أرادوا لى أن أهرب ..

لكنى ظللت مرتابًا غير قادر على فهم ما يحدث ، حتى أخذت عينة (كوخ) التى سرقتها وعرضتها على د. (جيبيون) الذى فحصها مجهريًا ..

قال لى : إن هذا نسيج من رحم !.. رحم امرأة أجرت جراحة (كحت) لا أكثر . فى هذه الجراحة تخرج أنسجة كثيرة ..

يصعب علىّ أن أتصور أن كل ما بقى من كوخ عبقرى الميكروبات الألمانى هو نسيج رحمى !..

باختصار هذا الأنبوب كان يحوى قطع لحم من أى نسيج فقط ليبدو كأن فيه شيئًا مهمًا ..

حتى لو لم يكن نسيج رحم ، فقد كان رأى (جيديون) أنـه نسيج طازج تمامًا .. لا يمكن أن يعود عمـره لمائـة علم بحـال ، مهما كانت طرق الحفظ ..

نعم يا سيدى .. لا شـىء علـى الإطـلاق يدور فـى مستشـفى د. (كاربيرا) ..

ما يدور ـ بعبارة أدق ـ هو عملية نصب كبرى ..

كـان تلـك الطاغيـة (تيـودورو أوبيـانج مباسـوجو) يحلـم باستنساخ نفسه وأن يجثم علـى صدر شعبه للأبد .. هنـا التقـى طريقه مع النصاب (كاربيرا) الذى يزعم فى المحافل العلمية أنه خبير استنساخ .. نعم .. الاستنساخ قـد جذب نصابين كثيرين ، وأخبار هؤلاء تملأ الصحف كل يوم ..

أقنع (كاربيرا) الطاغية بأنه سـيد الجينـات .. أنـه قـادر علـى عمل استنساخ لو وفروا له الإمكانيات ، وهى هنا إمكانيات دولـة ثرية .. وهكذا تم بناء هذا المستشفى ، وبدأ العمل ، وجاء بحشد من الأطباء الذين يشبهون أطباء الماضى المظلم ، وجعل كـلاً منهم يعيش بالكامل حيـاة شبيهه .. ربمـا إلـى درجـة غسـيل المـخ .. لا شك أن كل واحد من هؤلاء يعيش حياة شبيهه بالكامل ، حتـى وهو وحده ..

النتيجة أن الطاغية يدفع الكثير من المال ، وحساب (كاربيرا) في سويسرا يتضخم ..

لكنه يعرف أن لكل شيء نهاية ، والنصب لن يستمر للأبد ..

هو بحاجة إلى شاهد أحمق .. شاهد يرى كل شيء من الداخل ويمر بمغامرة قصيرة .. شاهد يرى هؤلاء الأطباء ويرى الأنسجة ثم يقبض عليه ويفر .. يفر بسهولة تامة كما حدث معي ..

منذ اللحظة الأولى عرف أنه لا علاقة لي بعلم الهندسة الوراثية ، وعرف أن بوسعه تقديم أي شيء لي كي أبتلعه ..

عندما أهرب سالمًا الدنيا صارخًا .. سأحكي لكل الصحف ووسائل الإعلام عن تجارب الدكتور (كاربيرا) العبقرية المخيفة ..

طبعًا سوف يهتم العالم ، ولسوف يطالبون بالفهم ؛ لأن استنساخ البشر محرم دوليًا ..

لكن هذه الضوضاء سوف تقنع الطاغية (تيودورو أوبيانج مباسوجو) بأن (كاربيرا) سيد الجينات فعلاً .. عبقري فعلاً ويحقق نتائج .. هذه هي اللحظة المناسبة كي يختفي كاربيرا قبل أن يقبض عليه .. سوف يختفي في مكان ما ، ولسوف يظهر وقد ازداد سعره وصار أكثر أهمية .. إما أن يواصل العمل مع (أوبيانج) وإما أن يجد دكتاتورًا آخر يدفع أكثر ..

أى إن دورى كان ـ ببساطة ـ ترويج الهراء الذى يزعمه (كاربيرا) عن نفسه ..

* * *

لقد رأيت ذلك الذى يؤدى دور (فرويد) يتحلل أمامى ..

عندما أفكر فى الأمر أجد أننى لم أر شيئًا تقريبًا سوى رجل تلوث وجهه بمادة لزجة تبدو من تحتها العظام .. هذا تأثير مقزز ، لكن أى خبير مؤثرات يمكنه القيام به .. قناع من اللاتكس الذائب ، تحته زوائد توحى بالعظام ..

الكلام عن التريبتوفان وتعليمات زميلى اليابانى .. كلها تفاصيل لا لزوم لها .. فقط تجعل الأمر يبدو أكثر دقة ، دعك من أن البحث عن التريبتوفان قادنى إلى المطبخ ، وهذا قادنى إلى القبو ..

(لوتشيا) الصغيرة كانت تلعب بى أيضًا ..

هناك لمسات بسيطة لكنى أشعر بأهميتها الآن .. كنا مقيدَيْن بحبال متينة ممتازة ، لكنى عندما فككت قيدها وجدت أنها مربوطة بحبل مهترئ رخيص الثمن .. معلوماتى أنها ظلت فى قيودها منذ رأيتها .. إذن هم جاءوا بها للقبو وقيدوها للمرة الثانية ، بمجرد أن عرفوا أننى هربت . لم يكن عندهم الحبل ذاته ، فاستعملوا أول حبل وجدوه ..

(لوتشيا) الآن في مكان ما من أمريكا الجنوبية ، تنعم بالمكافأة التي نالتها على التمثيل وخداع ذلك الأحمق ..

لكني لست أحمق ..

كما ترى يا سيدي .. هذه مجرد لعبة .. عملية نصب باهظة التكاليف ..

فما الذي بوسعنا أن نفعله ؟

* * *

قال د. (بارتلبيه) باسمًا :

- « بوسعنا عمل الكثير .. سوف نكتب لحكومة البلاد وننقل لهم رأينا ، مع عرض بأن يقبلوا أي خبير نرسله لهم ليثبت أن هؤلاء الأشخاص مجرد ممثلين وأن سيد الجبنات ليس سوى سيد النصب . لو عرف (أوبيانج) أنه خدع وأن (كاريرا) يلعب به ، فلن يرحمه .. سوف يمزقه إربًا إربًا في ميدان عام .. ربما لحرقه حيًا لو التهمه .. لا يهم .. أرى أن (كاريرا) يستحق هذا المصير على كل حال .. »

وافقته في حماس ..

على (كاريبرا) سيد الجينات أن يمر بساعات عصيبة كالتى عشتها على جزيرته ..

لا أعرف ما إن كان العلم سيجرب الاستنساخ البشرى يومًا ما ، وما إن كان سيحقق أى نجاح أم لا .. هذا سوف يجرد الإنسان من تفرده وكون كل واحد منا تجربة خاصة لا تتكرر ..

لكننا لا نهتم بأمور كهذه هنا فى وحدة سافارى ..

د. علاء عبد العظيم

أنجاوالديرى

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد كي يظل حياً وكي يظل طبيباً

الجزائر

ليبيا

مصر

مدار السرطان

الغربية

مالي

النيجر

تشاد

السودان

سيّد الجينات

د. أحمد خالد توفيق

خط الاستواء

من الصعب أن تفسد هذه القصة .. إن الكلام عن الجينات يروق للجميع سواء كانوا يهوون الرعب أو الخيال العلمي .. هنا نتحدث عن سيد الجينات وعن مكان غامض وعن علاء عبد العظيم وعن بشر يتحللون فجأة وعن رَذهات مظلمة .. باختصار هذه الرواية تبشر بأن تكون ممتعة جداً ما لم تفلت الخيوط من مؤلفها الذي عودنا على ذلك .. عليه أن يكون خذرا وأن يتمهل في السرد و إلا ....

مدار الجدي

العدد القادم

هـم !



الثمن في مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

مطابع